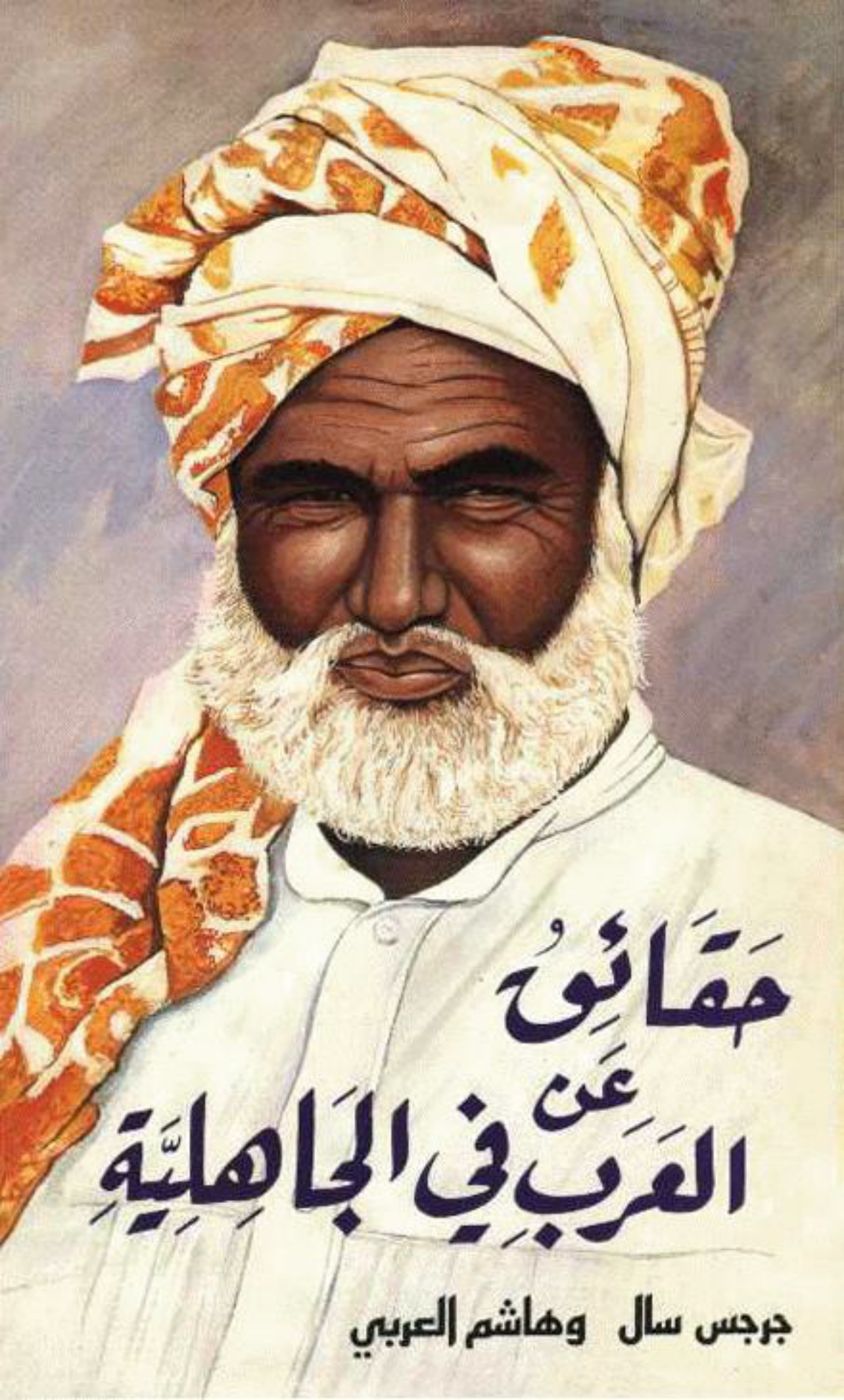

حقائق عن العرب في الجاهلية

جرجس سال وهاشم العربي

استهلال

هذا الكتاب، مقالة في الاسلام:

هو دليل كامل للمشتغلين بدراسة العقائد. ومرشد طويل الباع للعاكفين على مقارنة الاديان. وهو مرجع يعول عليه ولا يستغنى عنه لمن رام معرفة حقة عن الاسلام في بيآته السابقة والناشئة واللاحقة. وفي تأثراته الجمّة بما سبقه وعايشه من العلل والنحل في أدق أركانه وأصوله وفروعه. وهو بالتالي وثيقة تاريخية سيبقى على مر الايام، لانه مستمد قيمته من الموضوع الخطير الذى ينتصب حياله، ومن الحق الذى يصبو اليه ويعلن عنه.

فلم يغفل فيه كاتبه ناحية من نواحي الاسلام الا سلط عليها أنوار العقل، وأصول البحث العلمي النزيه. وأعطى كل ناحية فيه ما تستحقه من التحليل والبيان بموضوعية خالصة، وأمانة قاطعة، فجاء محكم الفكرة، قوى الحجة. عميق النظرة وكان فيه كاتبه ملتزم النصفة بادى النزاهة. بعيدا عن الهوى والهوس والغرض مما حمل الغلاه في الدين من مواطنيه على اتهامه بالمروق عن مسيحيته.

ومع أن الكاتب وكتابه من جيل غير جيلنا وأمة غير أمتنا لغة وحضارة، الا أنه استطاع بشموخ فكره وبعد نظره عبور الفاصل الزمني والقومي والحضارى الينا. لما أبداه من غزارة العلم وسعة الاطلاع على اللغة العربية وآدابها وفنونها وتاريخ العرب وأديانهم وعلومهم وعاداتهم في أعصرهم كلها ـ جاهلية واسلامية ـ وفيما تكلم به عن القرآن وأوامره ونواهيه وأحكامه. الامر الذى دفع العلامة الشهير فولتير الى القول: "لا بد أن يكون الكاتب قد قضى لا أقل من خمس وعشرين سنة من عمره في بلاد العرب". وهذا محض وهم لان الكاتب عفي عنه يوشك أن لا يكون قد خرج من بلاده انكلترا قط.

عرّب هذا الكتاب السيد هاشم العربي الشهير ثم قام بتذييل فصوله الثلاثة الاولى بأبحاث منه جامعة مانعة فجاءت مع الكتاب "كتابا برأسه كبير الفائدة يغني مطالعه ودارسه عن كثير من مطولات الكتب العربية، ويقفه على المهم من تاريخ العرب. ويلخص له بوجيز العبارة وزخم المعاني: ما هو الاسلام وما هو القرآن".

يسرنا ونحن نقدم هذا السفر النفيس الذى هدانا وألهمنا الله الى اخراجه من جديد أن نزفه الى قراء العربية عموما والى مراسلينا الاعزاء خصوصا، وأن ننوّه الى الامور التالية:

أولا: لاحظنا في الكتاب بعض الاخطاء اللغوية أو المطبعية، واشارات الى بعض العادات والاحكام، والحكام والنظم التي كانت سائدة أيام المؤلف وعفى عليها الزمن فتركناها كما هي أمانة للنقل وحفظا على سلامة التاليف.

ثانيا: أصدرنا الكتاب في أربعة أجزاء بحسب الموضوعات الرئيسية المدرجة فيه ثم اخترنا لها عناوين تتناسب وموضوع كل جزء منها وذلك على الشكل التالي:

١ ـ حقائق عن العرب في الجاهلية.
٢ ـ بوتقة ظهور الاسلام.
٣ ـ أسرار عن القرآن.
٤ ـ جذور الشرع في الاسلام.

ثالثا: كان الكتاب متسلسل الفصول والارقام، وكانت الذيول الثلاثة المشار اليها مدرجة في آخره، فأثبتنا كل ذيل مع الفصل الذى يتصل به، وجعلناهما جزءا واحدا. وتلافيا لاضطراب تسلسل أرقام الصفحات استعضنا عنها بأرقام عربية. أما أجزاء الكتاب الباقية فقد جعلنا منها جزءا واحدا وهو الرابع والاخير من الكتاب.

رابعا: استخرجنا للكتاب أسئلة لكل فصل وذيل وأثبتناها في نهايتهما. فجاءت الاجزاء الاربعة مسلسلات دراسية ومسابقات بحيث يتسنى لكل مشترك فيها الحصول على جائزة مفيدة من كتبنا القيمة في حالة نجاحه.

نسأل الله العلي العظيم أن يتقبل عملنا المتواضع هذا ويسبغ عليه من روحه ستر الكمال والبركة وعين الرضى لتعميم فائدته وليؤول المجد كله لله بربنا يسوع المسيح.

الناشرون

الفصل الاول

في عرب الجاهلية وتاريخهم واديانهم وعلومهم وعاداتهم

اعلم ان اسم العرب وبلادهم التي تدعى جزيرة العرب مشتق من لفظ عربة وهي ارض بتهامة دعيت بذلك اخذاً من يعرب بن قحطان جدّ العرب الاولين ثم توطنها اسماعيل بن ابرهيم بعد ذلك بقرون (١). واعلم ان قدماء المؤرخين النصارى كثيراً ما يدعون العرب بالشرقيين ولعل ذلك لان بني يقطان وهو قحطان العرب كانوا يسكنون الشرق على ما جاء في التوراة (٢) بناء على ان بلاد العرب تكون شرقاً باعتبار موقعها من بلاد اليهود .

وقد يطلق اسم جزيرة العرب توسعاً على جميع الارض التي يحدها الفرات وخليج العجم شرقاً وبحر الهند وخليج عدن جنوباً وبحر القلزم وبحر الروم غرباً وهي الارض التي كانت العرب من بعد الطوفان قد تملكت جانباً كبيراً منها اي نحواً من ثلثيها وهو ما يُدعى اليوم بلاد العرب بحصر اللفظ ثم تغلبوا على الباقي فتحاً او

---

(١) « ليس هذا ثبت لان في فلسطين موضعاً يسمى عربة ايضاً كما في مراصد

رحل اليه بعض نبائلهم فتوطنوه ولذا كان الترك والفرس في يومنا هذا يدعون تلك الارض باجمعها عربستان اي بلاد العرب

اما حدود بلاد العرب عند اهل الجغرافية فلا تتجاوز شمالاً الخط الذي فرضوه بين ايلة وخليج العجم ولا تتعدى تخوم الكوفة وهذا على التقريب ما كان الروم يدعونه بلاد العرب الميمونة اي السعيدة (١). اما الجغرافيون الشرقيون فيدخلون قسماً مما ندعوه نحن بلاد العرب البترية (٢) في حدود مصر وقسماً في حدود الشام ويدعون صحراء بلاد العرب بادية الشام. ويقسمون جزيرة العرب الى خمسة اقسام هي اليمن والحجاز وتهامة ونجد واليمامة ويزيد بعضهم قسماً سادساً يدعى البحرين ان المدققين منهم يدخلون البحرين في العراق. وقسم بعض الجغرافيين جزيرة العرب الى قسمين فقط هما اليمن والحجاز فجعلوا تهامة ونجداً واليمامة داخلة في الحجاز

فاليمن ولعله دعي بذلك لوقوعه عن يمين الكعبة او ليمن موقعه وخصب تربته يمتد على ساحل بحر الهند من عدن الى رأس الحد ويحدّه بحر القلزم غرباً وجنوباً والحجاز شمالاً . وهو على اقسام منها ذلك وقصبته صنعاء وهي مدينة قديمة جدًّا وكان يقال لها في الاعصر الخالية اوزال (١) . وقد اشتهرت بحسن موقعها وبهجته الا ان امير البلاد تحوّل عنها في ايامنا هذه الى موضع يقال له حصن المواهب على خمسة فراسخ من شمالي صنعاء وهو لا ينقص عنها في حسن البقعة . وقد اشتهر اليمن من قديم الزمان بجودة الهواء وبالخصب وكثرة موارد الثروة وهذا ما سوّل للاسكندر بعد عودته من غزوة الهند ان يحدث نفسه بفتحه وتحويل دار الملك اليه فحال موته دون غايته . على ان كثيراً من المستغلات التي كان الاقدمون يتوهمون انها من اليمن لم تكن في الحقيقة الا مجلوبة اليه من الهند وسواحل افريقية . وذلك ان قدماء المصريين وهم الذين انفردوا بتجارة بلاد العرب يتعاطونها عن طريق بحر القلزم كانوا يحرصون اشد الحرص على كتم تجارتهم ويمنعون فرضهم من الاجانب حتى لا يصلوا الى تلك البلاد ولا يبلغهم عنها خبر . فلذلك ولسبب الصحارى التي يتعذر اجتيازها على الغرباء كان اليونان والروم يجهلون احوال بلاد العرب الا قليلاً

عشر فرسخاً منه فهو صحراء قاحلة لا ماء فيها ولا نبات فاذا جاوزتها صرتَ الى جبال كثيرة المياه فهي لذلك في ربيع دائم وفيها كثير من انواع الفواكه والنبات . وهذا فضلاً عن البن الذي هو من خاص غلال اليمن . ويكثر فيها ايضاً القمح والكرم وانواع الافاويه الا انه ليس في اليمن انهار كبيرة وانما هو مسايل وجداول تنحدر من جباله في بعض فصول السنة وتغور في رمال الساحل قبل ان تبلغ البحر

اما الاقسام الاخرى من بلاد العرب فهي دون اليمن في الخصب ومعظم ارضها رملٌ او وعرٌ يتخللها بقاع مخصبة بنتفع بمياهها ونخيلها اما مكة وقد تدعى بكة ايضاً وكلا الاسمين مترادفٌ ومعناهما الازدحام فهي من اقدم مدن المعمور (١) وفي ظنّ بعضهم انها ميشا المذكورة في التوراة (٢) وهذا اسم لا تجهله العرب ويظن انه مأخوذ عن اسم احد اولاد اسمعيل (٣) وهي واقعة في بطن وادٍ وعر

(١) « هذا من المحتمل لان الكعبة بيت عبادة قديم الوجود في بطن مكة ولعله كان قبل ان تتسلل العربية عن السريانية ان كان ما حكاه الازرقي صحيحاً وهو انه وجد في حجر من الاساس كتابة بالسريانية . اما كون الكعبة بيت عبادة للاصنام فيؤيده قول البيروني نقلا عن ابن معشر البلخي ان الكعبة واصنامها كانت للصابئة ومن عبدتها كانوا من جملتهم وان اللات كان باسم زحل والعزى باسم الزهرة » (٢) سفر التكوين ٢٠:١٤ « وفي النسخة المطبوعة في رومية تدعى ماسا » (٣) تكوين ٢٥:١٥ « لكن هذا الظن مردود بدليل ان الاسم كان قد وضع من قبل ان يخلق اسمعيل فان كان ثم اتفاق بين لفظ ميشا او ماسا ارض الكعبة ولفظ مسا اسم ابن اسمعيل فالاولى ان يقال ان اسم الرجل ماخوذ من اسم البقعة لتقدم القسمية لا بالعكس »

مجدب تكتنفه الجبال من كل الجهات وطولها من الشمال الى الجنوب نحو ميلين وعرضها من اسفل اجياد الى ظهر قعيقعان نحو ميل (١) ويناؤها من حجارة يقطعونها من الجبال المجاورة. وليس في مكة آبار يصلح ماؤها للشرب الا بئر زمزم وهي وان كانت خير تلك الآبار الا ان ماءها زعاق ومن ادمن شربه ظهرت في جسمه البثور ولذا اضطر السكان ان يشربوا من ماء المطر يجمعونه الى مصانع الا انه لا يفي بحاجتهم ولذلك تصدى قوم منهم لاجراء الماء الى البلد من الضواحي في قنوات تعمل له. ففي ايام محمد حاول الزبير وهو من اشراف قريش ان يجري الماء الى مكة من عرفات وانفق في ذلك مالاً طائلاً فلم يقدر عليه ثم تصدت له من عهد قريب زوج السلطان سليمان العثماني (٢) فتم على نفقتها وكانوا قبلوا بابا عصر قد شرعوا في عمل قناة يأتي فيها الماء الى مكة من مسافة بعيدة واقاموا في البناء مدة متطاولة فتم في خلافة المقتدر (٣).

وارض مكة عقيمة قاحلة ليس فيها شجر يثمر ولا ينبت هناك الا شجر البادية غير ان للشريف اليوم عند قصره المسمى بالمربعة بستاناً صالحاً يقضي فيه اكثر اوقاته وهو من مكة على ثلاثة اميال الى الغرب. ولما كانت ارض مكة لا تفلُّ شيئاً مما يقتات به اضطر

---

(١) الشريف الادريسي (٢) هي كريمته لا زوجه. انظر كتاب الاعلام للنهروالي وكان معاصراً لسليمان. (٣) الاصطخري

اهلها ان يجلبوا الميرة من البلاد الاخرى (١) ولما تولى هاشم وهو ابو عبد المطلب جدّ محمد الامارة على قريش جعل لهم رحلتين احداهما تسافر في الصيف والاخرى في الشتاء لجلب الميرة وهاتان الرحلتان مذكورتان في القرآن (٢) وكان ما تاتيان به من الميرة يوزّع عليهم مرتين في العام وذلك في رجب وعند قدوم الحاجّ ثم يأتيهم من البلاد المجاورة شيء كثير من التمر ويأتيهم العنب من الطائف وهو بلد على ستين ميلاً من مكة اذ لا يكاد ينبت شيء منه في مكة

واغلب اهل مكة موسرون وذلك لكثرة ما يربحون في تجارتهم مع الحجاج الذين يتقاطرون اليها من كل فج ومن كل امة لحج البيت فتقام حينئذٍ سوق تنفق فيها كل السلع. وكذلك لهم شيء كثير من السائمة ولا سيما الابل غير ان من كان منهم فقيراً فهو في ضنكٍ من العيش ولا بدع فانهم في بلد قليل الخير لا يكادون ينالون فيه ما يحتاجون اليه لقيام الحياة الا شراء. وما ذكرناه من الجدب فانما هو مقصورٌ على ارض مكة اعني ما يدعى بالحرم فاذا جزته قابلتك عيونٌ وآبار وبساتين كثيرةٌ واوديةٌ ذات خضرٍ ومزارع (٣) وسيمرُّ بك بعد هذا ذكر الكعبة وما ذاع من بركة تلك البقعة

---

(١) الشريف الادريسي (٢) سورة قريش (٣) ابن حوقل

اما المدينة فكانت قبل هجرة محمد اليها تدعى يثرب ومساحتها تبلغ نحو النصف من مكة ويحيط بها سور وهي في سهل من الأرض تكتنفه جبال منها أحد شمالاً وعير جنوباً وبينهما مسافة فرسخين وكثير من هذا السهل سباخ الا انه في بعض المواضيع لا يخلو من خصب ويكثر فيه التمر خصوصاً بالقرب من الجبال . وفي هذا البلد مدفن محمد وهو قبر ضخم تعلوه قبة وهو ملاصق للجدار الشرقي من المسجد والمسجد في وسط البلد (١)

اما تهامة ودعيت بذلك من التهم اي شدة الحر لما فيها من الرمال المحرقة (٢) كما دعيت بالغور ايضاً لانخفاضها فيحدها بحر القلزم غرباً والحجاز شمالاً واليمن جنوباً . ويدخل تحت اسم تهامة كل ما كان بين مكة وعدن من الارض

واما نجد ومعناه الارض المرتفعة فهو بين اليمامة واليمن والحجاز ويحده من الشرق العراق . واما اليمامة ويقال لها عروضٌ باعتبار موقعها من اليمن كأنها معترضة فهي بين نجدٍ وتهامة والبحرين وعمان والشحر وحضرموت وسبا وحاضرتها مدينة اليمامة وبها دعي القسم كله وكانت في القديم تدعى جوًّا وهي مقام مسيلمة الكذاب الذي بارى محمداً في النبوة (٣)

---

(١) ابن حوقل (٢) «ولا يبعد ان تكون دعيت كذلك من تصوب ارضها الى البحر لان التهم له هذا المعنى ايضاً » (٣) «وسيأتي بعض خبره »

اما العرب سكان هذه الارض المتسعة واصحابها منذ عهد قديم جداً فهم عند مؤرخيهم طبقتان العرب البائدة والعرب الباقية . اما العرب البائدة فكان عددهم كثيراً وكانوا قبائل متعددة بادت قاطبة او اختلطت بقاياها بغيرها . وليس بين ايدينا من اخبارها ما يوثق به ولكن كان الخلف يروي عن السلف بطريق التناقل اخبار عظائم ونكبات نزلت ببعض القبائل منها فلما جاء الاسلام اقرّ القرآن ما كان دائراً من ذلك على ألسن الناس. واشهر هذه القبائل عاد وثمود وطسم وجديس وجرهم الاولى وعماليق

اما عاد فهي ذرية عاد بن عوص (١) بن إرَم (٢) بن سام بن نوح قالوا انه سكن حضرموت من الاحقاف بعد بلبلة الالسن فنمت فيها ذريته . وكان شدّاد بن عاد اوّل ملوكهم وعنه يروي مؤرخو المسلمين قصصاً كثيرة اغربها انه اتم بناء مدينة عظيمة كان ابوه قد اختطها وشرع في بنائها وانه شاد بها قصراً وجمله بجناتٍ انيقة لم يدّخر في تزيينها والتأنق فيها نفقةً ولا عناءً يريد بذلك ان يحمل رعيته على اعتقاد الربوبية فيه (٣) وسمى جنته هذه بجنة إرَم وقد ذكرها القرآن (٤) وتهافت المصنفون من المسلمين على

(١) وهو عوز في بعض نسخ التوراة انظر سفر التكوين ١٠ : ٢٢ و ٢٣

التلميح اليها (٣) وهم يزعمون انها لا تزال قائمة باذن الله في برية عدن شاهدة بعدله لكن لا يكاد يراها من العباد احد الا من يمنّ الله عليه بذلك . وكان في خلافة معاوية رجلٌ يقال له عبد الله بن قلابة زعم انه رآها فدعاه الخليفة ليتحقق منه ذلك فقص عليه انه بينما كان ينشد راحلة له قد ضلت اذا به عند ابوابها فدخلها فلم ير بها ديّاراً فارتاع ولم يقم بها الا ريثما التقط بعض احجار كريمة اراها الخليفة

ثم ان عاد مرقت بتمادي الزمان من الدين الحق وعبدت الوثن فبعث الله اليهم النبي هود (وهو باجماع العلماء عابر الذي يدعوه اليهود نبياً) لينذرهم ويردهم عن الكفر فكذبوه فسلط الله عليهم ريحاً صرصراً عاتيةً (٤) فصفت سبع ليال وثمانية ايام حسوماً تدخل في خياشيمهم وتخرج من ابدانهم حتى هلكوا الا نفراً منهم كانوا قد آمنوا بالنبي هود فانصرف بهم الى موضع آخر ثم عاد الى حضرموت ومات ودفن بالقرب من حاسك ولا يزال هنالك في ايامنا هذه بلدة صغيرة تدعى قبر هود (٥) . الا انه قبل نزول هذا العقاب الشديد بعاد عمد الله الى تذليلهم لعلهم يتعظون بانذار نبيه

(٢) « لايكاد يخلو من ذكرها تاريخ ولا تفسير وليس في علماء المسلمين من نبه هذه القصة سوى ابن خلدون » (٤) سورة الحاقة وتفسيرها للبيضاوي

فابتلاهم بالقحط اربع سنين متوالية حتى هلكت انعامهم كلها واوشكوا هم انفسهم ان يهلكوا فارسل لقمان (وهو غير لقمان الذي كان في عصر داود النبي) وستين رجلاً معه الى مكة يستمطرون فلم يمطروا واقام لقمان ونفر من اصحابه بمكة فنجوا من الهلاك الذي احاق بالقبيلة . ثم نشأت منهم قبيلة ثانية تدعى بعاد الاخرى فمسخها الله بعد ذلك نسناساً (١) . وزعم جماعة من المفسرين (٢) ان عاد الاول كانوا جبابرة طوالاً حتى ليكون ارتفاع قامة أطولهم مائة ذراع ولا تنقص قامة أقصرهم عن ستين ذراعاً ويحاولون ان يثبتوا زعمهم بنص من القرآن (٣)

واما ثمود فهم ذرية ثمود بن جاثر(٤)بن ارم عبدوا الوثن فبعث اليهم النبي صالح ليردهم الى عبادة الاله الحق وذلك في الفترة التي بين هود وابرهيم وعليه فلا يمكن ان يكون صالح هذا هو شالخ كما توهم قومٌ ومن الناس من يظن انه فالغ وذلك الى الصواب اقرب . فلم يؤمن به سوى نفرٍ منهم واقترح عليه باقوم آيةً وهي ان يخرج لهم من الصخرة ناقةً عشراء(٥)ففعل باذن الله ولما خرجت الناقة ولدت

---

(١) انظر قاموس الفيروز ابادي في لفظة نسناس (٢) ومنهم الزمخشري والسيوطي
(٣) الاعراف : ٦٧ ، وانظر أيضاً الباب ٣٧ من مروج الذهب » (٤) تكوين

لساعتها فصيلاً ومع ذلك لم يؤمنوا به بل ضربوا عرقوب الناقة وعقروها فسلط الله عليهم بعد ثلاثة أيام رجفةً وصيحة من السماء هائلةً يزعم قومٌ انها صوت جبريل فتقطعت منها قلوبهم وهلكوا(١) ونجا صالح ومن كان آمن به منهم وتحوّل الى فلسطين ومنها الى مكة فمات فيها(٢) وكانت ديار ثمود باليمن فلما أجلاهم عنه حمير بن سبا سكنوا الحجر من الحجاز ولا تزال ثم الى اليوم بيوتهم التي كانوا ينحتونها من الجبال (٣) وكذلك لا يزال يرى صدع الصخرة الذي خرجت منه الناقة وعرضه ستون ذراعاً كما زعم أبو موسى الاشعري الذي ادعى انه عاينه . الا ان هذه البيوت ليست باعظم من سائر البيوت المألوفة وبهذا دفع بعضهم ما قيل عن طول قامات ثمود مما تقدم قريباً (٤)

واما طسم وجديس فالاولى ذرية لود بن سام والثانية ذرية جاثر بن ارم بن سام(٥) وكانت هاتان القبيلتان مختلطتين اشخاصاً ومساكن وكان الملك عليهم في طسم واستمروا على ذلك دهراً حتى افضى الملك من طسم الى رجل يمات غشوم فجعل سنته ان لا تهدى بكر من جديس الى بعلها حتى يفترعها هو اولاً فأنفت من ذلك جديس

---

(١) « تفسير الآية ٧٦ من سورة الاعراف للبيضاوي » (٢) ابن الشحنة

واتفقوا على ان دفنوا سيوفهم في الرمل ودعوا ملك طسم وخواصه الى طعام فلما كانوا على الطعام في قصف ولهو قامت اليهم جديس فقتلوهم كافة وابادوا اكثر طسم الا انه نجا منهم نفر فاستنصروا ملك اليمن وهو يومئذ ذو جبشان بن عقران فسار بهم على جديس واوقع بهم حتى افناهم عن آخرهم ولم يبق للقبيلتين ذكر بعد ذلك

واما جرهم الاولى وهم في زعم قوم ذرية واحد من الثمانين الذين نجوا مع نوح وأهل بيته في السفينة كما جاء في الاثر المحمدي فكانوا معاصرين لعاد وبادوا قاطبة

واما عماليق فهم ولد عماليق بن اليفاز بن العيس (١) وزعم قوم ان عماليق هو ابن حام بن نوح وقال آخرون انه ابن لود بن سام (٢) ومهما يكن من هذا الاختلاف في نسبه فالمتفق عليه هو ان ذريته قويت شوكتهم واستفحل امرهم (٣) حتى قادهم ملك لهم اسمه الوليد الى غزو مصر فزحفوا عليها وافتتحوها وكان ذلك قبل زمان يوسف بن يعقوب. وزعم جماعة من مؤرخي المشرق ان الوليد هذا هو أول من تلقب بفرعون ولعلهم يعنون بهؤلاء العمالقة أمة تدعى في تواريخ مصر القديمة بالرعاة الفينيقيين (٤) فبقيت مصر تحت سلطانهم دهراً حتى نهض اهلها فأجلوهم عنها ثم ابادهم بنو اسرائيل عن بكرة

---

(١) تكوين ٣٦ : ١٢ (٢) ابن الشحنة (٣) سفر العدد ٢٤ : ٢٠

(٤) انظر رد يوسيفوس المؤرخ اليهودي على ابيون

أبيهم (١). هذا ما اثره الخلف عن السلف من اخبار العرب البائدة. واما العرب الباقية فهم في قول مؤرخيهم متفرعون من جذمين أحدهما قحطان وهو يقطان بن عابر (٢) والآخر عدنان من ذرية اسمعيل. فالقحطانية يدعون بالعرب العاربة أي العرب الخلص (٣) والعدنانية يدعون بالعرب المستعربة اي الدخلاء في العربية. الا ان قوماً يزعمون ان العاربة هم العرب البائدة ولذلك يدعون القحطانية بالمتعربة أي الدخلآء في العربية الا ان دخولهم متقدم على دخول المستعربة. وعلى هذا فليس لذرية اسمعيل وجه في دعواهم انهم عرب خلص لان جدهم اسمعيل كان عبرانياً مولداً ولساناً وانما صاهر جرهماً اذ تزوج بابنة لمضاض احد ملوكهم فانتمى اليهم وانتحل عاداتهم ولسانهم فاختلطت ذريته بهم وصارت معهم امة واحدة. والنسابون منهم لا يكادون يعرفون شيئاً مما بين جدهم عدنان واسمعيل ولذلك فهم قلما يتجاوزون عدنان هذا في سياقة الانساب اذ كانت لا خلاف فيها من عدنان فنازلاً. هذا ما ذكره مؤرخو العرب عن قبائلهم وهي كلها من نسل سام غير ان هناك قبائل أخر من العرب جدهم الاعلى قوش ابن حام والتوراة كثيراً ماتدعو العرب قوشيين وبلادهم بلاد

---

(١) سفر الخروج ١٧ : ١٨ وسفر صموئيل الاول ١٥ : ٢ و٢٧ : ٨ وسفر الايام الاول ٤ : ٤٣ (٢) تكوين ١٠ : ٢٥ (٣) « هذا على حد ما يسمي بولس نفسه عبرانياً من العبرانيين واراد بذلك انه عبراني خالص » انظر رسالته الى اهل فيلبي ٣ : ٥ »

قوش الا ان مساكنهم لم تكن في الواقع ببلاد العرب نفسها أعني جزيرة العرب بل كانت بشطوط الفرات وسواحل خليج العجم واصلهم من شوشن وهي خوزستان موطن جدهم قوش ولعلهم قد اختلطوا على تمادي الزمان بالعرب الساميين الا ان المؤرخين الشرقيين لا يكادون يذكرونهم

ثم ان العرب العاربة الذين فيهم كلامنا استمروا دهراً طويلاً وحكامهم من القحطانية وذلك ان يعرب احد بني قحطان هو مؤسس مملكة اليمن وجرهم وهو ابن آخر له مؤسس مملكة الحجاز . وكان اليمن او اكثره ولا سيما سبأ وحضرموت يتولى الحكم فيه ملوك من ذرية حمير ثم انتقل الملك منهم الى ابناء عمهم أي الى ذرية كهلان اخي حمير فاستمر بنو كهلان يدعون انفسهم ملوك حمير ويتلقبون كلهم بالتبابعة جمع تبع وتفسيره خلف(١) وقد خص ملوك حمير بهذا اللقب كما خص ملوك الروم بلقب قيصر وملوك المسلمين بالخليفة . ثم ان اليمن كان فيه عدة اقيال عدا ملوك حمير الا انهم كانوا كلهم أوجلهم في طاعة ملك اليمن يدعونه الملك الاعظم ولذلك لم يكن عنهم في التاريخ شيء يهم ذكره

---

(١) « هذا ان صح مايزعمه اهل اللغة من ان لفظ تبع عربي وانه معدول عن تابع لكن هذا الزعم ليس بثابت والصحيح ان اللفظ حبشي وتفسيره القوي كما ان حمير لفظ حبشي أيضاً وتفسيره الاحمر وسنقف على ذلك في موضعه من الذيل ان شاء الله »

بيت سقي اي حظ من الماء يصل اليهم بقنوات تتشعب من السدّ. قالوا ثم كان من امر اولئك القوم ان عتوا وتجبروا فسخط الله عليهم وقضى بقهرهم وتشتيتهم فارسل السماء عليهم بسيل شديد صدم السد فتهدم واندك ليلاً والناس نيامٌ وجرف السيل مأرب وما حولها واهلها جميعاً. واستمر من بقي في اليمن من القبائل بعد هذه النازلة على طاعة ملوكهم الى نحو سبعين سنة قبل ظهور محمد وفي تلك السنة وجه النجاشي جيشاً الى اليمن لينقذ من فيه من النصارى من اضطهاد ملكهم الملقب بذي النواس وكان يهودياً غالياً في دينهِ فضيقت عليه الحبشة حتى اضطر ان يقتحم البحر بفرسه فغرق وذهب ملكه. وتعاقب على اليمن من بعده اربعة من ملوك الحبش الى ان قام سيف بن ذي يزن الحميري واستنجد بكسرى انوشروان وحصل منه على مددٍ كان النصر اولاً من هرقل قيصر الروم ولم ينله فاستعاد الملك من الحبشة واجلاهم عن اليمن الا انه بقي فيه نفر منهم فقتلوه غيلة وصار الاكاسرة بعد ذلك يولون الملوك على اليمن حتى ظهر محمد واستولى عليه فخضع له باذان آخر ملوكه واسلم. قال ابو الفدا استمرت مدة ملك اليمن الفي سنة وعشرين سنة وقال غيره (١) انها

---

(١) الجناي واحمد بن يوسف

استمرت ثلاثة آلاف سنة وانما وقع الخلاف في هذا لان مدة ملك كل من ملوكه لا تعلم على التحقيق

وقد تقدم ان الذين نزحوا من اهل اليمن على اثر سيل العرم اسسوا مملكتين خارجاً عن جزيرة العرب هما غسان والحيرة . اما مملكة غسان فانشأها قوم من الازد نزلوا على ماء بالشام يقال له غسان فنسبوا اليه وكان بالشام قبلهم عرب يقال لهم الضجاعمة من سليح فاخرجهم الغسانيون عن ديارهم ونزلوا مكانهم وبقيت البلاد في سلطانهم اربعمائة سنة وقيل ستمائة سنة وقال ابو الفداء بل ستمائة وست عشر سنة بالحساب المدقق . وكان من ملوكهم خمسة يسمى كل واحد منهم بالحارث (١) وعامل احدهم على دمشق هو الذي أمر ان تؤخذ ابواب المدينة ليقبض على بولس الرسول (٢) ثم تنصروا واستمروا على دين النصرانية الى ان كان آخر ملوكهم وهو جبلة بن الايهم فرأى من هبوب ريح العرب ما حمله على ان يظهر الاسلام في خلافة عمر بن الخطاب لكنه لم يلبث ان ناله من عمر ما ساءه فارتدّ الى النصرانية ولحق بالقسطنطينية . اما مملكة الحيرة فقد اسسها مالك بن فهم من ولد كهلان في ارض الكلدان وهي العراق فتعاقب عليها بعده ثلاث ملوك ثم افضت بطريق المصاهرة الى

---

(١) واليونانيون يخطئون في رسم هذا الاسم فيكتبونه وينطقون به أرتاس

(٢) انظر رسالته الثانية الى اهل كورنتوس ١١ : ٣٢ واعمال الرسل ٨ : ٢٤

الملوك اللخميين الملقبين بالمناذرة فما زالوا عليها بلا انقطاع يمتدُّ به حتى قام خالد بن الوليد في خلافة ابي بكر فانتزع الملك من يد اخر ملوكهم وهو الذي كان يدعى بالمغرور ومدة هذه المملكة ستمائة سنة واثنتان وعشرون سنة وثمانية اشهر وكان ملوكها عمالاً للاكاسرة على العراق مثلما كان ملوك غسان عمالاً للقياصرة على الشام

اما الحجاز فاول ملوكه جرهم بن قحطان ثم تعاقب الملك في ولده الى ايام اسمعيل فلما تزوج اسمعيل بابنة ملكهم مضاض وُلد لهُ منها اثنا عشر ولداً فانتقل الملك الى واحد منهم وهو نبدار وذلك ان اخواله الجرهميين نزلوا له عنه وتوّجوه . وجاء في بعض الروايات ان ذرية اسمعيل اخرجت جرهم عن ديارهم فنزحوا الى جهينة وتقلبت بهم الاحوال فما زالوا يشقون تارة ويسعدون اخرى حتى بادوا قاطبة بسبيل اصابهم الا ان ملك الحجاز لم يثبت بعد جلائهم عنه في يد امير واحد بل كانت كل قبيلة يسوسها رئيسها كحال عرب البادية في يومنا هذا وكان الحكم في مكة من نوع المشيخة وزمام امرها بيد قريش ولا سيما بعد أخذ قريش سدانة الكعبة من خزاعة ولبثت على ذلك الى ايام محمد

وكان في بلاد العرب عدا ما ذكرناه من الممالك الكبيرة عدة ممالك صغيره وهي قبائل مستقلة وعليها امراء منها واهمها كندة لكني اضرب عن تعدادها صفحاً اذ ليس من قصدي ان اكتب تاريخاً مطولاً للعرب ولا في ذلك كبير فائدة لما نحن فيه

ولبثت بلاد العرب بعد محمد في ايدي خلفائه زهاء ثلاثة قرون الى ان كانت سنة خمس وعشرين وثلثمائة للهجرة فاصبح قسم كبير منها في ايدي القرامطة وهم فرقة ظهرت لذلك العهد وعاثوا واصحابها وعاثوا حتى في مكة نفسها واضطر الخلفاء ان يؤدوا اليهم ضريباً من الجزية كي لا يتعرضوا للحجاج وساعود الى الكلام عليهم في الفصل الثامن من هذه المقالة . ثم تولى امر اليمن بعد ذلك امراء من آل طباطبا العلويين وكان ابتداء امارتهم على اليمن فيما يقوله بعض المؤرخين من عهد شرلمان. وسواء صح ذلك ام لا فمما لا شك فيه انه كان في المائة العاشرة للميلاد على اليمن ومصر امراء علويون او ممن يدّعون انهم علويون(١) . اما في ايامنا هذه فاصحاب دولة اليمن هم على الارجح من الايوبيين وذلك ان نفراً منهم كانوا قد استولوا على اليمن في القرن الثالث عشر للميلاد وتلقب كل واحد منهم بالخليفة والامام ولا يزالون يلقبون انفسهم بذلك الى يومنا هذا ولكن ليس كل اليمن في طاعتهم لان فيه ممالك مستقلة اشهرها فرنج . ثم ان ملك اليمن لا يرثه الابن عن ابيه وانما يرثه من بيت

---

(١) « لعل المؤلف يشير هنا الى الدولة الفاطمية »

الملك من يورثه وجوه الامة بالبيعة او من كان له منهم الحزب الاقوى

اما مكة والمدينة فلهما امراء من ذرية محمد وقد خلعوا ربقة الطاعة للخلفاء كما فعل ملوك اليمن وصار زمام الامر على التعاقب في واحد من بيوت اربعة من العلويين اي من ولد الحسن بن علي يدعون بالشرفاء لشرف نسبهم وهم بنو قادر وبنو موسى وبنو هاشم وبنو قتاده . وقد مضى اليوم على بني قتادة خمسمائة سنة واسير مكة واحد منهم . اما المدينة فامراؤها من بني هاشم وكانوا على مكة قبل بني قتادة .

وملوك اليمن اليوم كامراء مكة والمدينة في الاستقلال والخروج عن طاعة سلاطين الترك خلافاً لما زعم واحد من المؤلفين المحدثين. نعم انهم لكثرة ما انتشب بينهم من الحروب مهدوا السبيل لسليم الاول وابنه سليمان فبنيا اسطولاً بالسويس واغارا به على السواحل الشرقية من بحر القلزم فاستحوذا عليها وعلى قسم من اليمن ايضاً لكن خلفاءهما لم يقدروا على ضبط هذه الفتوح في ايديهم وليس للترك اليوم في بلاد العرب شيء سوى فرضة جدة الا ان عاملهم عليها قلما يطاع له امر

ومن هذا تعلم ان العرب لم ينفكوا منذ الطوفان الى يومنا هذا على استقلال تام وتشهد لهم بذلك اثار قديمة ليس لكثير من الامم مثلها فكم من قائد جيش زحف عليهم فعاد عنهم بالفشل وقد حاول ملوك بابل ونينوى ان يجعلوا لانفسهم في بلاد العرب قدماً راسخة فعجزوا عن ذلك خلافاً لما توهم توم كما عجز الاكاسرة ان يضربوا على العرب الجزية وان اوهم ذلك ما كان العرب يهادونهم به من اللباذ في كل عام اذ لم تكن هذه المهاداة الا من وجه المودة والمجاملة . ويدلك على انه لم يكن لهم شيء من الولاء على العرب ان كامبيس الفارسي لما سار بجيشه على مصر اضطر ان يستأذنهم في الاجتياز ببلادهم . وكذلك الاسكندر لما كسر شوكة الفرس هابته سائر الامم المجاورة وارسلت اليه الوفود الا العرب فانهم لم يهابوه ولم يرسلوا اليه وفداً فاحفظه ذلك عليهم ومن جراه وكذلك طمعاً منه في الاستيلاء على بلادهم الكثيرة موارد الثروة نوى فتحها وضمها الى مملكته فادركته المنية قبل ان يقدم على ما نواه ولو فعل لعله كان يلقى من العرب ما يثبت عنده انه ليس بالغلاب الذي لا يغلب ولا اعلم ان احداً ممن خلفه على الملك في مصر وآسيا تصدى للعرب بشيء وكذلك قياصرة الروم لم يستطيعوا ان يفتحوا شيئاً من بلاد العرب نفسها وجهد ما قدرو عليه هو ان احدهم الذي يقال له بني ضرب الجزية على بعض عرب الشام . ولم يتوغل احد من قوادهم او قواد غيرهم في بلاد العرب توغل ايليوس على عهد القيصر اوغسطس ولكنه لم يقدر على فتحها كما وهم قوم بل اضطر ان ان يقفل عنها خائباً من جل قصده وهلك معظم جيشه بالامراض او بطوارق اخرى ولعل اخفاق سعي هذا القائد هو الذي ثبط الروم بعد ذلك عن التصدي لقهر العرب . ولا عبرة بما ضربه عاهلهم تريانوس من النقوش تذكراً لانتصاره على العرب كما انه لا يعتد بما قاله في ذلك خطباؤه ومؤرخوه الذين جعلوا ألسنتهم واقلامهم وقفاً على اطرائه فانه لم يستطع في الحقيقة ان يقهرهم حتى ان القطعة التي يقال انه اخذها من بلادهم وضمها الى مملكته لا تكاد تتجاوز طرف البلاد الشمالي من ديار ثمود . وقال واحد من المؤرخين انها لما انتقضت عليه بعد ذلك زحف عليها بخيله ورجله ليردها الى الطاعة فلقي من اهلها ما اضطره الى القفول عنها خائباً .

اما دين اكثر العرب في الجاهلية فهو الوثنية لان معظمهم كانوا صابئين وان كان فيهم كثير من النصارى واليهود والمجوس . واكتفي من الكلام على هذه الطائفة اعني الصابئين بتخليص مقالاتهم وعباداتهم على وجه الايجاز دون الخوض في أصل دينهم وما قيل فيه اذ ليس ذلك من غرضي في هذا الموضع . فهم وان كانوا من جهة موحدين وكانت مقالاتهم في التوحيد على غاية من الاحكام الا انهم كانوا من جهة اخرى مشركين يعبدون النجوم او الملائكة والعقول التي كانوا يزعمون انها حالة فيها وانها تدبر العالم عن امر الاله الاعظم . وكانوا يلتزمون فضائل النفس الاربع ويزعمون ان نفس الفاسق تعذب تسعة آلاف دور ثم تصير الى رحمة الله تعالى . وقد فرض عليهم ثلاث صلوات أولها قبل طلوع الشمس بنصف ساعة او اقل من ذلك بحيث ينقضي مع الطلوع ثماني ركعات في كل ركعة ثلاث سجدات . والثانية صلاة الظهر وهي خمس من تلك الركعات وسجداتها وتنقضي مع الزوال . والثالثة كالثانية وتنقضي مع الغروب . وكان لهم ثلاثة صيامات في السنة اولها ثلاثون يوماً والثاني تسعة ايام والثالث سبعة . وكانوا يكثرون من القرابين غير انهم ما كانوا يأكلون منها شيئاً بل كانوا يحرقونها وكذلك ما كانوا يأكلون الباقلى والثوم وبعض البقول والقطاني (١) وقد اختلف المؤرخون في تعيين قبلتهم فقال ابن العبري انها القطب الشمالي . وقال غيره انها القطب الجنوبي وقال آخر انها مكة وقال رابع انهم انما كانوا يستقبلون النجم الذي اليه يصلون ولعل الصحيح في ذلك انهم ما كانوا في امر القبلة على سنن واحد . وكان لهم حج بالقرب من حران بالجزيرة وهي مابين النهرين حيث كان يسكن خلق كثير منهم وكانوا أيضاً يعظمون

---

(١) قاله ابو الفرج الملطي المعروف بابن العبري

كعبة مكة واهرام مصر متوهمين ان هذه الاهرام مقابر شيث وابنيه ادريس (١) وصابي الذين يزعمون انهم وضعوا دين الصابئة اولاً ونشروه . فكانوا يضحون عند تلك الاهرام بديك وعجل اسود ويصعدون بخوراً اما كتبهم فما عدا كتاب الزبور الذي لا يقرأون غيره من صحيح الكتب المنزلة قد كان لهم كتب اخرى يعتقدون انها منزلة مثله ومنها كتاب بالكلدانية يشتمل على كثير من المواعظ الادبية يدعونه كتاب شيث . ويزعمون انهم انما تلقبوا بالصابئة من صابي بن شيث المتقدم ذكره لكن الارجح انهم دعوا بذلك من لفظ صبا او صباوت أي الجنود السماوية التي كانوا يعبدونها. وكثيراً ما يدعوهم أهل السياحة بنصارى يوحنا المعمدان وهم انفسهم يدعون انهم من تلاميذه ولهم ضربٌ من المعمودية هي اعظم مشابهة فيهم للنصارى وهذا الدين هو واحدٌ من الاديان التي تغاضى محمد عنها بشرط اداء الجزية وكثيراً ما يذكر القرآن اصحابه في جملة اهل الكتاب

فعلى هذا تكون وثنية العرب باعتبار كونهم صابئة منحصرة في عبادة النجوم والملائكة وتماثيلهم وهم يكرمونهم من حيث هم آلهة ثانية عندهم ويستشفعونهم الى الاله الاعظم وهو الله تعالى وذلك

---

(١) « وهو اخنوخ »

ان العرب ما كانوا يعترفون الا باله واحد اعظم هو خالق الاكوان ورب العالمين وكانوا يدعونه الله تعالى اما معبوداتهم الاخرى فهي دونه وكانوا يدعونها الإلاهات . ولما لم يفهم اليونانيون معنى هذه الكلمات اي الله تعالى والإلاهات اتبعوا ماجرت به عادتهم من رد اديان الامم كافة الى اصل واحد هو دينهم أي دين اليونان ومن ثم وضعوا لكل امة آلهةً من عندهم تقابل آلهتها فزعموا انه لم يكن للعرب سوى الهين او معبودين هما ارتلت واليلات كما يكتب عندهم لفظ الله تعالى والإلاهات خطأ وادعوا ان هذين المعبودين ليسا سوى باخوس واورانيا . وانما خصصوهما بالعرب دون سواهما من آلهتهم لان احدهم باخوس وهو من اعظم معبوداتهم نشأ في بلاد العرب على مازعموا وثانيهما اعني اورانيا وتفسيره السماء او الفلك انما توهموه من معبودات العرب لما عاينوا من شدة تكريمهم للنجوم . ولنا على ما قلناه من ان العرب ما كانوا يعترفون الا باله واحد ادلةٌ جمةٌ نكتفي بواحد منها وهو قولهم في التلبية لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك الاَّ شريكٌ هو لك تملكه وما ملك (١) . اذا علمت هذا تبين لك انهم لم يكونوا يعدون طواغيتهم آلهة تستحق العبادة في انفسها وان كانوا يقربون لها القرابين كما كانوا يقربون لله بل

---

(١) الشهرستاني

كثيراً ما كانوا يخصونه بأقل الانصبة منها حتى طعن فيهم محمد(١) وذلك انهم كانوا اذا غرسوا غرساً او حرثوا حرثاً خطوا في وسطه خطاً فقسموه اثنين وقالوا مادون هذا الخط لآلهتهم وما وراءه لله فان سقط مما جعلوه لآلهتهم شيء في ما جعلوه لله ردوه وان سقط مما جعلوه لله شيء في ما جعلوه لآلهتهم اقروه واذا ارسلوا الماء في الذي جعلوه لآلهتهم فانفتح في الذي سموه لله سدوه وان انفتح من ذلك في هذا قالوا اتركوه فانه فقير اليه وليس الله فقيراً الى شيء (٢) وكذلك اذا رأوا ان النصيب الذي عينوه لله ازكى من الذي عينوه لآلهتهم بدلوا بينهما لكنهم لم يبدلوا بينهما اذا اتفق الخلاف (٣). فلما جاء محمد نهى قومه عن هذه الوثنية اي عبادة آلهة ثانية هي شركاء الله كما كانت العرب تدعوها وردهم الى عبادة الاله الحق وحده. ومن هنا تعلم جهل من رمى المسلمين بالوثنية (٤) فما هم بوثنيين وان كان في دينهم ما يطعن فيه من وجوه اخرى. وانما انقاد العرب بسهولة الى عبادة النجوم لما رأوه من تغيير الرياح عند طلوعها وافولها وهي ما يدعونه بالانواء وذلك بعد ان رصدوا حركاتها مدة متطاولة حتى افضى بهم الامر الى ان عزوا اليها قدرة الربوبية

---

(١) «سورة ٦ : ١٣٧ وما يليها» (٢) كتاب نظم الدر (٣) البيضاوي في تفسير الآية ١٣٧ وما يليها من سورة ٦ (٤) «قال المعرب لعل له عذراً وانت تلوم الا ترى تهافتهم على تقبيل الحجر الاسود»

وتوهموا انها هي التي تتفضل عليهم بالغيوث التي تمدُّ منةً من اعظم المنن في بلاد قاحلة كبلادهم وقد لمح القرآن الى هذا الاعتقاد الباطل.

وكان للعرب كما كان لاهل الهند (اذ بين هاتين الامتين عظيم مشابهة في المعتقدات) سبعة بيوت عبادة شهيرة للسيارة السبعة احدها يدعى بيت غمدان بناه الضحاك في صنعاء اليمن تعظيماً للزهرة فهدمه الخليفة عثمان(١) وبقتل عثمان هذا تمت النبوة التي زعم الجنابي انها كانت منقوشة على البيت وهي غمدان هادِمك مقتولٌ. ويقال ان الكعبة كانت معبداً لزحل (٢)

ومع ان هذه النجوم والكواكب كانت معبودات للامة كلها عامة فقد كان لكل قبيلة واحدٌ منها تنفرد بعبادته خاصةً فكانت حمير تعبد الشمس وميسم (٣) الدبران ولخم وجذام المشتري وطيء سهيلاً وقيس الشعرى العبور(٤) واسد عطارد. وقد شاع بين عبدة الشعرى ذكر رجل يقال له ابو كبشة وزعم قوم انه وهبٌ جد محمد لامه وقال غيرهم انه من خزاعة. فافرغ ابو كبشة جهده في رد قريش عن عبادة اصنامهم ودعاهم الى عبادة الشعرى فلُقب محمد بابن ابي

---

(١) الشهرستاني (٢) الشهرستاني (٣) «لعل هذا الاسم مصحف عن سليم أو تميم أو تيم» (٤) «قال في صبح الاعشى ما شعريان العبور والغميصاء، فالعبور هي التي كانت تعبد في الجاهلية»

كبشة لانه حاول كجدّه ان يردهم عن اصنامهم وقد لمح القرآن تلميحاً خصوصياً الى عبادة الشعرى(١)

اما الملائكة او العقول التي كانت العرب تعبدها فقد ذكر القرآن منها ثلاثة مؤنثة الاسماء (٢) وهي اللات والعزّى ومناة وكانوا يدعونها إلاهات وبنات الله. ولم يكونوا يقصرون هذه الالقاب على الملائكة المعبودة فقط بل كانوا يلقبون بها تماثيلها ايضاً لاعتقادهم ان الروحانية تفيض من عند الله على هذه التماثيل او انها هيا كل للملائكة تحيا بهم. وانما عبدوا تلك الالاهات لانهم توهموا انها تشفع فيهم عند الله تعالى فكانت ثقيف تعبد اللات وكان لها بيت عبادة في نخلة فوجه محمد المغيرة وابا سفيان وذلك في السنة التاسعة من هجرته فكسر الصنم فحزن الثقفيون اهل الطائف ولاسيما نساؤهم اشد الحزن عليه واشدة تعلق قلوبهم به سألوا محمداً عند عقد الصلح ان يدع لهم اللات ولا يهدمها الى ثلاث سنين فأبى هذا الشرط فنزلوا الى شهر فلم يجبهم (٣) ولاشتقاق هذا الاسم اوجه شتى لكن أقربها الى الصواب انه مشتق من المادة المشتق منها اسم الله فيكون معناه الألاهة على التانيث (٤)

---

(١) سورة النجم آية ٥٠ وتفسير البيضاوي (٢) سورة النجم أيضاً
(٣) تاريخ ابي الفداء (٤) «تاء اللات ليست اصلية بل هي هاء تأنيث وانما كره البدل فيها لئلا تشبه اسم الله كما ذكر ابن درستويه»

اما العزّى فكانت لقريش وكنانة ولقوم من بني سليم (١) وقال الفيروزابادي انها سَمُرَة عبدتها غطفان اول من اتخذها ظالم ابن اسعد بنى عليها بيتاً وسماه بسّاً وكانوا يسمعون فيها الصوت فبعث محمد اليها خالد بن الوليد في السنة الثامنة من الهجرة فهدم البيت وقطع السمرة واحرقها فخرجت سادنتها ناشرة شعرها داعية ويلها واضعة يدها على رأسها فجعل خالد يضربها بالسيف حتى قتلها لكنه قال في موضع آخر ان زهير ابن جناب هو الذي هدم البيت وقتل ظالماً لانه بناه ليصرف الحجاج عن مكة ويجتزئ الناس به عن الكعبة. والاسم مشتق من العزة وهو مؤنث الاعز

اما مناة فكانت تعبدها هذيل وخزاعة وهما قبيلتان منازلهما بين مكة والمدينه وقال بعضهم عبدتها الاوس والخزرج وثقيف ايضاً (٢) وكانت صخرة عظيمة فكسرها رجل اسمه سعد (٣) وذلك في السنة الثامنة للهجرة وهي سنة شؤم على اصنام العرب. واسم مناة مشتق من منى اي اراق لما يراق عندها من دماء الاضاحي ومن هذا الاصل ايضاً اشتق اسم وادي منى بالقرب من مكة حيث ينحر الحجاج هديهم في يومنا هذا

وقد جاء في القرآن ايضاً ذكر خمسة اصنام للعرب وهي ودٌّ

---

(١) الجوهري والشهرستاني (٢) الشهرستاني وابو الفداء وغيرهما
(٣) البيضاوي والزمخشري في تفسيريهما

وسواع ويغوث ويعوق ونسر فنذكرها اولا ثم نأخذ في ذكر باقي اصنامهم. زعموا ان هذه الاصنام متقدمة على الطوفان وان نوحاً كان ينذر الناس ليردهم عن عبادتها وانها كانت تماثيل اناس صالحين اتقياء في عصرهم وكانت العرب بادية بدءٍ تكرم تماثيلهم تكريماً دنيوياً فقط ثم عبدوها على توالي الزمان والأبوا أصحابها. وكان ود على صورة رجل يرمز به الى السماء وكانت كلب تعبده بدومة الجندل. اما سواع فكانت في صورة امرأة وكانت تعبدها همدان وقيل بل عبدتها هذيل بالرقة . وقيل ان الطوفان دفن هذا الصنم فلبث تحت الماء ماشاء الله حتى استثاره ابليس فعبدته هذيل وحجت اليه . وكان يغوث في صورة أسد وكانت تعبده مذحج وغيرها من عرب اليمن واسمه مشتق من الغوث . وكان يعوق لمراد وقال غيره لهمدان وكان في صورة فرس. زعموا انه كان رجلاً تقياً عابداً فمات فجزعوا عليه جداً فجاءهم ابليس في صورة انسان وضمن لهم ان يعيده الى الحياة وزين لهم تخفيفاً لجزعهم عليه ان يصوروا صورته في محراب مسجدهم فيكون نصب اعينهم عند الصلاة فصوروه من صفرٍ ورصاص ووضعوا معه في مساجدهم تماثيل سبعة رجال آخرين من صالحيهم ثم تمادى بهم الامر الى ان اتخذوا تلك التماثيل اصناماً يعبودنها (١)

---

(١) تلخيص ما في القاموس والمستطرف

والاسم مشتق من عاقه أي ثبطه . اما نسر فكانت تعبده حمير بذي الكلاع وكان في صورة نسر كما يدل على ذلك اسمه

وكان في مدينة باميان من عمل كابلستان صنمان طول كل واحد منهما خمسون ذراعاً زعم قوم انهما يغوث ويعوق او مناة واللات . وقالوا ايضاً ان هنالك بالقرب منهما صنماً آخر اصغر منهما قليلاً يقال له نسرم او نسر وهو في صورة عجوز وان هذه الاصنام الثلاثة كانت جوفاً وذلك لاجل الكهانة والعرافة غير انه يترجح عندنا انها اصنام غير اصنام العرب المتقدم ذكرها . وكان ايضاً في مدينة سومنات بالهند صنم اسمه لات او اللات طوله خمسون باعاً من حجر واحد وقد جعلوه في وسط بيت عبادة تدعمه ست وخمسون اسطوانة من الذهب المصمت (١) فلما فتح محمود بن سبكتكين ذلك القطر من الهند كسر الصنم بيده

وكان للعرب اصنام كثيرة غير التي عددناها الا ان وصفها بالتفصيل يطول ولما كان القرآن لم يذكرها باسمائها كانت بمعزل عما نحن فيه وحسبنا ان نقول اجمالاً ان كل اهل دار اتخذوا في دارهم صنماً يعبدونه فاذا اراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب وكان ذلك آخر ما يصنع اذا توجه الى سفره واذا قدم من سفره بدأ به قبل

(١) « قال المعرب هذا من ارهام القصاص المولعين بالغريب فلعل الاساطين كانت منشاة بصفائح الذهب اذ ليس من المحتمل ان تكون كلها ذهبا مصمتاً »

ان يدخل الى اهله (١). وكان لهم بالكعبة وما حولها ثلاثمائة وستون صنماً على عدد ايام سنتهم (٢) وكان اعظمها هُبَل وهو صنم قدم به من البلقاء عمرو بن لحي وزعم انه يمطرهم اذا استمطروه وكان في صورة رجل من العقيق الاحمر فانكسرت احدى ذراعيه بعارض ما فجعلت له قريش ذراعاً من ذهب. وكان بيده سبعة أزلام وهي سهام بلا نصل ولا ريش كانت العرب في الجاهلية تستقسم بها (٣) وزعم قوم انه صورة ابرهيم التي كسرها محمد في سنة ثمانٍ للهجرة وذلك حين فتح مكة ودخل الكعبة فوجدها فيها (٤) وكان حولها عدد كثير من تماثيل الملائكة والانبياء وفيهم اسمعيل نفسه وفي يده الازلام (٥)

ومن أصنامهم أيضاً اساف في صورة رجل ونائلة في صورة امرأة جيء بهما من الشام ووضع احدهما في الصفا والآخر في المروة وزعمت العرب انهما جرهميان وان اساف هو ابن عمرو ونائلة بنت سهل ففجرا في الكعبة فمسخهما الله حجرين (٦) ثم عبدتهما قريش واشطّوا في ذلك وغلوا حتى ان محمداً مع انكاره هذه العبادة عليهم لم يسعه الا اقرار عادتهم في زيارتهما فادعى انهما من شعائر الله

---

(١) المستطرف والجنابي (٢) الجنابي وابو الفداء والشهرستاني (٣) صفي الدين بن عبد الحق (٤) أبو الفداء (٥) «المسعودي» (٦) الجنابي وابن الاثير «والمسعودي»

فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه ان يطوف بهما (١) وآخر ما نذكره من اصنامهم قطعة حَيْس (٢) اتخذتها حنيفة صنماً في الجاهلية غير انهم لم يكونوا يأكلونها الا اذا ادركتهم مجاعة (٣)

ولم يكن اكثر اوثان العرب ولا سيما مناة سوى احجار كبيرة غير متقنة الصنعة واول من ادخل عبادتها بينهم بنو اسمعيل وذلك انهم نموا وتكاثروا حتى ضاقت بهم ارض مكة فاضطر كثيرٌ منهم ان يتخذوا منازل جديدة ينزحون اليها فكانوا اذا انتزحوا حملوا شيئاً من حجارة هذه الارض المباركة وكانوا في اول امرهم ينصبونها ويطوفون بها كطوافهم بالكعبة ثم افضى بهم ذلك مع توالي الزمان الى عبادة وثنية محضة ونسيت ذرية اسمعيل دين ابائهم كل النسيان حتى طفقوا يعبدون كل ما استحسنوه من الحجارة (٤)

واعلم ان الوثنيين من العرب اصنافٌ فمنهم من انكر الخلق والبعث وعزا الاول الى الطبع المحيي والثاني الى الدهر المفني ومنهم من أقر بكلا الامرين (٥) فكان بعض هؤلاء اذا حضره الموت اوصى انه تشد راحلته عند قبره ليحشر راكباً والا حشر راجلا وذلك من العار عندهم فكانوا يربطون الناقة معكوسة الرأس الى

---

(١) سورة البقرة ١٥٣ (٢) «هو تمر يخلط بسمن واقط فيعجن وبذلك حتى يمتزج ثم يندر منه نواه» (٣) المستطرف والجوهري (٤) الجنابي (٥) ابن العبري والشهرستاني

مؤخرها ويتركونها هكذا بلا علف ولا ماء حتى تموت (١) ومنهم من يعتقد التناسخ فيقول اذا مات الانسان او قتل اجتمع دم الدماغ فانتصب طائراً يسمى هامة فيرجع الى رأس القبر كل مائة سنة وقيل ايضاً ان هذا الطائر نفس وانه ينشط من جسم الانسان اذا قتل ولا ينفك يصرخ اسقوني اسقوني أي بدم قاتلي حتى يأخذ بثأر القتيل فيطير (٢) وقد حرم محمد هذه العقيدة. اما استيفاء الكلام على غير ذلك من عادات العرب وعقائدهم الباطلة التي حرّم محمد بعضها واباح بعضاً فليس هذا موضعه

ولنغادرن الآن الوثنيين من العرب ونلتفت الى من كان يدين منهم بدين اقرب الى العقل من الوثنية فنقول ان الفرس كانوا لقرب بلادهم من بلاد العرب وكثرة مخالطتهم لهم قد ادخلوا المجوسية في بعض القبائل وخاصة في تميم (٣) وذلك من قبل الاسلام بمدة متطاولة . ولم يكن محمد يجهل هذا الدين بل اخذ عنه شيئاً كثيراً كما ستقف عليه في موضعه ان شاء الله. ولما زحف الروم على اليهودية في اواخر المائة الاولى للميلاد واهلكوها هاجر كثير من اليهود الى بلاد العرب فهودوا كثيراً من قبائلها ولا سيما بني كنانة وبني الحارث بني كعب وكندة (٤) ثم قويت شوكتهم فيها على كرور

---

(١) الشهرستاني والمستطرف (٢) الشهرستاني والمستطرف (٣) المستطرف
(٤) المستطرف

الدهر فتملكوا عدة بلاد وحصون . وكانت اليهودية معروفة عند العرب قبل ذلك بمائة سنة او نحوها وفي ظن بعضهم ان اول من دخلها في مشركي حمير منهم ابو كرب اسعد الملمح اليه في القرآن (١) وكان ملكاً على العرب قبل محمد بسبعمائة سنة وكان بعض خلفائه يهوداً ايضاً ومنهم يوسف الملقب بذي نواس الذي اشتهر بالغلو في الدين وشدد الاضطهاد على كل من لم يتهود من رعيته حتى كان يعيتهم باصناف من العذاب وكان يتخذ اخاديد من النار يقذفهم فيها فلقب لذلك بصاحب الاخدود وقد ورد ذكر هذا الاضطهاد في القرآن (٢) وكذلك النصرانية كانت منتشرة في هذه الامة قبل محمد ومن الناس من يزعم ان بولس الرسول هو اول من دعا العرب الى النصرانية الا ان ذلك مما لا نعلمه يقيناً لكنه من المحقق ان ما ألمّ بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الاحوال في صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها ان يلجأوا الى بلاد العرب طلباً للحرية وكان معظمهم يعاقبة فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة (٣) واهم القبائل التي تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيء وقضاعة واهل نجران والحيرة (٤)

---

(١) الدخان: ٣٦ وسورة ق: ١٢ (٢) البروج: ٦ وانظر أيضاً كتاب المعارف لابن قتيبة (٣) ابن الدبري (٤) المستطرف

اما اهل نجران فانهم تنصروا على عهد ذي نواس (١) ولعلهم بعض من تنصر على اثر الحادثة الآتية وقد جرت في عهد ذي نواس او قبله بقليل هذا ان صح انها جرت . حكي والله اعلم ان يهود حمير دعوا من يليهم من النصارى الى مناظرة تجري على مسمع ومرأى من الملك وخواصه وعامة الناس فاجابوا واستمرّ الجدال ثلاثة ايام وكان غرجنتيوس اسقف ظفار يناظر عن النصارى وحبرٌ يقال له هربانوس يناظر عن اليهود. ففي ثالث ايام المناظرة اقترح هربانوس على النصارى تنجزاً لها انه ان كان يسوع الناصري حياً في الحقيقة وهو في السماء كما تزعم عباده يسمع تضرع دعاته ويستجيب ابتهالهم فليتجلّ لهم من السماء فيؤمنوا به وهتف اليهود طرّاً بصوت واحد اروتا مسيحكم فتنتصر . فثارت للحين زوبعة في الجو وتلألأ البرق وقصف الرعد وظهر المسيح في الجو تكتنفه هالةٌ من اشعة المجد وهو يخطر على غمامة ارجوانية وبيده سيفٌ وعلى رأسه اكليل يفوق كل ثمن ونطق على رؤوس الملأ بهذه الكلمات هأنذا الذي صلبني اباؤكم اتجلى لابصاركم ثم غيبه السحاب عنهم . فمج النصارى هاتفين يارب ارحم وعمي اليهود كافة ولم يرتد اليهم بصرهم حتى صبغوا بماء المعمودية متنصرين

---

(١) الجناي

أما نصارى الحيرة فقد زاد عددهم كثيراً بمن انضم اليهم من العرب الذين لجأوا الى الحيرة هربا من اضطهاد ذي نواس وكان ملك الحيرة النعمان ابو قابوس الذي قتل قبل مولد محمد ببضعة اشهر قد تنصر على أثر الحادثة الآتية وذلك انه سكر ذات يوم وكان له نديمان يحبهما محبة شديدة فأمر في سكره بدفنهما حيين ولما صحا ندم على ما فعل واشتد جزعه عليهما وبنى فوقهما بنائين طويلين يقال لهما الغريّان وجعل لنفسه كل سنة يوم بؤس ويوم نعيم يجلس فيهما بين الغريين فكان يكرم من وفد عليه في يوم النعيم ويقتل من وفد عليه في يوم البؤس ويطلي الغريين بدمه وجعل ذلك سنة له . فاتفق ان وفد عليه في يوم البؤس رجل من طيء كان قد قراه وآواه في يوم خرج النعمان فيه يتصيد فذهب به فرسه في الارض وانفرد عن اصحابه فلما نظر اليه النعمان ساءه وفوده في ذلك اليوم لانه وجد نفسه بين أمرين اما ان ينقض سنته بتخلية سبيله واما ان ينتهك بقتله حرمة الضيافة التي كانت العرب اشد الناس حرصاً على صون حقوقها. فعرض الطائي عليه ان يؤجله حولاً كاملاً من ذلك اليوم الى مثله في القابل بشرط ان يقيم له ضميناً يضمن رجوعه في نهاية الاجل ليقتل فرق له واحد من خاصة الملك وقال للنعمان ابيت اللعن عليّ ضمانه فرضي النعمان بذلك وامر للطائي بخمسمائة ناقة فانصرف الى اهله ولما حال الحول ولم يرجع امر النعمان ان يجردوا الضمين ليقتل فقال له وزراؤه ليس لك ان تقتله حتى يستوفي يومه فتركه وهو يشتهي ان يقتله ليسلم الطائي . فبينما هم في ذلك اذا بالطائي قد اقبل فلما نظر اليه النعمان قال له ما الذي جاء بك وقد أفلتّ من القتل قال الوفاء قال وما دعاك الى الوفاء قال ديني قال وما دينك قال النصرانية قال فاعرضها عليّ فعرضها عليه فتنصر النعمان واهل الحيرة جميعاً وترك تلك السنة من ذلك اليوم وامر بهدم الغريين وعفا عن الطائي والضمين وقال ما ادري ايكما اكرم واوفى أهذا الذي ضمنه وانا لا اكون ألأم الثلاثة(١)

وليس النعمان اول من تنصر من ملوك الحيرة فقد كان جده المنذر نصرانياً وبنى الكنائس العظيمة في دار ملكه (٢) ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد في بلاد العرب لزم عن ذلك ولا بد انه كان للنصارى اساقفة في مواضع جمة منها لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر اسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام اسقف (٣) وكان للياقية الذين اسلفنا ان معظم نصارى العرب منهم اسقفان في بلاد العرب تحت رئاسة مفريانهم (أي مطرانهم) وكان احدهما يدعى اسقف العرب باطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهي الكوفة عند ابن العبري او بلدة اخرى بالقرب من بغداد عند

(١) اليعقوبي وغيره (٢) تقويم البلدان لابي الفداء (٣) صاحب مراصد الاطلاع ومن أساقفتها قس بن ساعدة خطيب العرب وفصيحها

ابي الفدآء (١) وثانيهما يدعى اسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة. اما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى اسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم (٢)

هذه اشهر اديان العرب في الجاهلية الا انه لما كانت بلادهم بلاد حرية نشأ عن ذلك بالطبع اتساع المجال لآرائهم في الدين فذهب بعضهم في امره مذاهب اخرى . ففشا في قريش خاصة المذهب المعروف بالزندقة (٣) وهي بدعة يظن انها كثيرة المشابهة لبدعة الصادوقيين بين اليهود ولعلها لا تختلف كثيراً عن مذهب الفلاسفة الذين يؤمنون بالهٍ واحد وان انكروا الوحي اذ كان في قريش قبل محمد خلق كثير يؤمنون بالله وحده ولا يشوبهم شرك او وثنية وما كانوا مع ذلك يدينون بشيء من الاديان الفاشية في بلادهم

وكانت العرب قبل محمد كما لم يزالوا بعده طبقتين اهل مدر وهم الحواضر وسكان القرى واهل وبر وهم الذين يعيشون في البر تحت الخيام وكان اهل المدر يترزقون من الزرع والنخيل والماشية وانتحال كثير من الحرف ولا سيما التجارة التي اشتهروا بطول الباع فيها منذ القديم اي من زمن يعقوب (٤) فكان لقريش شديد

---

(١) تقويم البلدان (٢) السمعاني في المكتبة العربية (٣) المستطرف

(٤) «اشارة الى تجار العرب الذين اشتروا يوسف بن يعقوب من اخوته كما جاء في التوراة : انظر سفر التكوين ٣٧ : ٢٨ و ٢٩»

انصباب عليها وكان محمد في حداثة سنه يرشح نفسه لها اذ كانت عادة العرب ان يتبع الابن منهم حرفة ابيه . اما أهل الوبر فكانت معيشتهم من رعي السائمة ونهب ابناء السبيل احياناً وكان قوتهم من ألبان الابل ولحومها وكانوا ينتجعون منابت الكلا ويرتادون مواقع القطر فيخيمون هنالك ما ساعدهم الخصب وامكنهم الرعي ثم يتوجهون لطلب العشب وابتغاء المياه فلا يزالون في حل وترحال وكان ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء وأقشعرت الارض انقبضوا الى اوياف العراق واطراف الشام. وانما اختار معظم ذرية اسمعيل هذا الضرب من العيش لانه اشبه بما كان ابوهم عليه ومن احب الوقوف على تفاصيل عيش البداوة فليطلبه من مواضعه من الكتب المسهبة في هذا الشان

اما العربية فلا شك في انها من اقدم اللغات وقد ابتدأت بعد قليل من بلبلة الالسن في بابل اذا لم نقل انها ابتدأت اذ ذاك وكان فيها لغات تختلف احداهن عن الاخرى اختلافاً كثيراً اشهرهن الحميرية لسان حمير وغيرهم من العرب العاربة ثم لغة قريش الا ان الحميرية هي اقرب تلك اللغات الى الاصل السرياني اذ العرب انفسهم يقرّون بان جدهم يعرب هو اول من انعدل لسانه عن السريانية التي وُلد فيها الى العربية وبأنّ السريانية اقدم (١) وهو ما عليه جمهور الشرقيين . ومع ذلك فلغة قريش هي التي تعرف بالعربية الفصحى او اللسان العربي المبين كما دعاها القرآن (٢) الذي بها كتب . وفي رأي أحد علمائنا انها انما كانت كذلك لان ابام اسمعيل الذي تعلمها من جرهم قربها الى الاصل العبراني لكن الارجح عندي ان ما في لغة قريش من السلاسة والفصاحة مسبب عن كونهم سدنة الكعبة ومقامهم في مكة التي هي في وسط بلاد العرب بحيث كانوا بمعزل عن مخالطة الاعاجم وما يدخل بسببهم على اللغة من الفساد وهذا فضلاً عن انها كانت مجمعاً للعرب يختلفون اليها من كل فج لا لحج البيت فقط بل لاصلاح ذات بينهم ايضاً فكانت قريش تأخذ من اشعارهم وخطبهم كل ما تراه فصيحاً رقيقاً وتضمه الى لغتها حتى اجتمع فيها من باقي اللغات كل ما كان ناصعاً جزلاً

ثم ان العرب كثيراً ما يطنبون في مدح لسانهم ولعل اطنابهم لايخلو من حق فان العربية تفضل كثيراً من اللغات الاخرى وذلك من عدة أوجه فانها من الاتساع بحيث لايقدر ان يحيط بجميع علمها انسان غير نبي (٣) وهذا فضلاً عما فيها من بلاغة العبارة وهم مع ذلك يقولون ان اكثرها قد فقد . ونحن اذا اعتبرنا انه قد أتى

---

(١) انظر جمهرة ابن دريد وصحاح الجوهري (٢) سورة الشعراء ١٠٥

(٣) « جاء في مقدمة تاج العروس قول بعض الفقهاء كلام العرب لا يحيط به الا نبي »

على هؤلاء القوم دهرٌ طويلٌ لم يكن لهم فيه حظٌ من فن الكتابة لم نستغرب قولهم . نعم ان ايوب الصديق وهو ابن بلادهم كان له المام بهذا الفن (١) وكانت حمير ايضاً تعرفه من قبل محمد بقرون كما تدل على ذلك آثار ونقوش عليها كتابة بالخط المسند حروفها منفصلة انفصالاً غير بيّن ولم يكونوا يعلمونها ولا يبيحون استعمالها للعامة الا باذن (٢) الا ان باقي العرب وخاصة اهل مكة لم يكن لهم بالكتابة ادنى المام اللهم الا من كان منهم يهودياً او نصرانياً. واول من استنبط صور الحروف العربية مرامر ابن مرة الانباري فاخذها بشار الكندي عن اهل الانبار فيما يقال ونقلها الى مكة وذلك قبل الاسلام بقليل وهي غير الحروف الحميرية وبها كتب القرآن في اول الامر . ومضى على العرب دهرٌ طويل وهم يستعملونها على قلة ما كان فيها من الاحكام اذ هي ان لم تكن عين الخط الكوفي الذي يرى به الى يومنا هذا كثير من النقوش والكتب القديمة فهي لا تبعد عنه كثيراً. اما الحروف المتقنة الجميلة الصورة التي يكتبون بها الآن فقد استنبطها من الكوفي ابو علي محمد بن مقلة وزير المقتدر والقاهر والراضي من الخلفاء العباسيين وذلك بعد الاسلام بزهاء ثلثمائة سنة ثم هذبها ونقحها علي بن هلال

(١) ـ اقرأ ايوب ١٩: ٢٣ ـ ٢٤ وقد أنكر قوم ان يكون من العرب (٢) مقدمة ابن خلدون في فصل الخط والكتابة

المعروف بابن البواب وهو متأخرٌ عن ابن مقلة بنحو قرنٍ فطار لذلك صيته في الآفاق (١) الاَّ انه يقال مع ذلك ان الذي نقلها الى الصورة الحاضرة هو ياقوت المستعصمي كاتب المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ولذلك لُقّب بالخطاط (٢). وكانت العرب تفتخر بثلاثة أشياء. أولها الفصاحة في لسانهم. ثانيها المهارة في الفروسية وحمل السلاح. ثالثها الجود وقرى الضيف فالفصاحة كانوا يمرنون أنفسهم عليها بتأليف الخطب أو نظم الشعر وكانت خطبهم نوعين منظومة ومنثورة تشبيهاً لها بمنظوم الدر ومنثوره وكانوا يحرصون على التبريز في كلا النوعين فكان من استطاع منهم في المحافل ان يستميل قومه الى الاقدام على أمرٍ ذي بالٍ او الاحجام عن امرٍ ذي تهلكة او بذل لهم النصح يلقب بالخطيب وهذا لقبٌ يطلق اليوم على الواعظ. وكان اسلوبهم في الخطابة مخالفاً لخطباء اليونان والروم فكانت فقراتهم كجواهر منثورة لا ارتباط لبعضها ببعض ولذا كانت اكثر ما تروع مستمعيها بجزالتها ونصاعة الفاظها ودقة حكمها. وكانوا من الاقتناع بتبريزهم على غيرهم في هذا الاسلوب بحيث يزعمون انه ليس في الامم

---

(١) وقيل ان أخا ابن مقلة واسمه ابو عبد الله الحسن هو الذي نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين وان ابن العميد الكاتب نقلها وهذبها بعد ان كان عبد الحميد قد اجرى فيها وبدل حتى جعلها على الصورة الحاضرة. وانظر ترجمة ابن البواب في وفيات الاعيان

(٢) «قال بعضهم فصاري ما فعله ياقوت انه زاد طريقة ابن مقلة اتقاناً وتحسيناً»

كلها من يعرف فن الخطابة حق معرفته سوى العرب والفرس الا ان العرب اخطب منهم. واما الشعر فكانوا ينزلونه منزلةً عاليةً حتى كانوا اذا استطاع الرجل منهم ان يقول الشعر المنسجم الرقيق في نازلة ما عدَّ ذلك منه كياسةً ودليلاً على كرم محتدهِ بل كانوا في محاوراتهم الاعتيادية كثيراً ما يتمثلون بالابيات السائرة من نظم فحول الشعراء. وكان الشعر عندهم بمنزلة ديوان يحفظون به المكارم والمناسب ويقيدون فيه الايام والمناقب ويستودعونه حفظ حقوق القبائل فلذلك كان الشاعر المجيد يحسب ذخراً لقبيلتهِ وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعرٌ صنعت الاطعمة واتت القبائل فهنأتها بذلك واجتمعت النساء يضربن بالمزاهر كما يصنعن في الاعراس وتتباشر الرجال والولدان لانه حمايةٌ لاعراضهم وذودٌ عن احسابهم وتخليدٌ لمآثرهم وصيانةٌ للسانهم ورشادة لذكرهم (١). كل ذلك كان في شعرهم فهو ديوان علمهم ومنتهى حكمتهم به يأخذون فيما يعرفونه من أمر المعاش والمعاد واليه يرجعون في كل ما يشجر بينهم فلا غرو ان يكون ذلك باعثاً على التهانئ. وكان التهنئة شيئاً عزيزاً عندهم لا يبذلونه الاَّ في أحوال ثلاثة يعدونها خليقةً به فكانوا لا يهنئون الاَّ بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم او فرس تنتج. ثم انهم حرصاً على بقاء روح المفاخرة

(١) « ابن رشيق في العمدة وانظر ايضاً في مقدمة شرح الحماسة ما قاله التبريزي في ذلك »

والمنافسة في صدور شعرائهم كانت قبائلهم تجتمع مرةً في كل سنة بعكاظ وهو موضعٌ قد اشتهر بذلك وكانت تقام فيه أيضاً سوقٌ في يوم الاحد من كل اسبوع فكان اجتماعهم يستمر شهراً كاملاً يتبايعون فيه ويتناشدون الشعر ويتماكظون أي يتفاخرون ومن هذا دعي الموضع بعكاظ . وكانت القصائد التي يحكم لها بالتبريز تعلق في خزانة الملك كما علقت القصائد السبع المشهورة ومن أجل ذلك دعيت بالمعلقات لا من أجل تعليقها في الكعبة كما قال قومٌ . على انها كانت أيضاً تعلق في الكعبة بامر الامة مكتوبةً في ثوب قبطيّ بماء الذهب ولذلك تدعى بالمذهبات أيضاً . فلما جاء الاسلام ابطل محمد كلاً من الاجتماع السنوي والسوق الاسبوعية في عكاظ

وكان العرب في أيامه ومن بعده ببضع سنين قد تشاغلوا عن الشعر بالجهاد والفتوح فلما تمّ لهم الفتح واطمأنوا بالامصار راجعوا الشعر والتفتوا معه الى غيره من المعارف ونفقت عندهم سوق العلم وعنوا بالفنون واتقنوا كثيراً منها لكن معظم اشعارهم القديمة كانت قد فقدت اثناء تشاغلهم بالفتوح لانهم لقلة معرفتهم فنّ الكتابة في الجاهلية لم يكونوا يعتمدون في حفظ الشعر الا على الرواية (١). على انهم مع كونهم قد عرفوا نظم الشعر من عهد قديم لم يكن لأوائلهم

---

(١) المزهر للسيوطي

منه الا الابيات يقولها الرجل في حاجته ولم يكن لعلم العروض عندهم قانون يضبط قواعده ويقرر اصوله وانما تم لهم ذلك بعد محمد ببضع سنين (١) أي حينما ظهر الخليل بن احمد الفراهيدي في خلافة الرشيد العباسي ودوّن اصول العروض

أما السيف والفروسية فقد اضطرهم استقلال قبائلهم الى التمرن عليهما والندب اليهما وذلك انهم لكثرة ما كان يشجر بينهم كادوا ان يكونوا في حرب مستمرة يحسون في ساحتها مادة النزاع بحد السيف وكانوا يقولون انَّ الله ميزهم باربعة ابدلهم العمائم من التيجان والخيام من الدور والجدران والسيوف من الخنادق والشعر من كتب الشرائع

واما الجود وقرى الضيف فقد كان ذلك لهم قانوناً متبعاً وكانوا يعظمون أمر الجود جداً حتى أصبحت شواهده عندهم تفوق كل ما عند غيرهم منها وحسبنا من أجوادهم ذكر حاتم الطائي وحصن الفزاري اللذين طار ذكرهما في الآفاق . وكانوا يستقبحون البخل غاية الاستقباح حتى ان احد الشعراء اراد ان يرمي اهل واسط بما يعدُّ اشنع العيوب فلم يزد على ان قال فيهم

---

(١) روى الصفدي ان عروضاً يدعى ابا جعفر جنس ذات يوم عند مقياس النيل في مصر فلم يرتفع الماء فيها الى علوه المألوف وكان لذلك يختبر القحط فيها فاخذ يقطع بيت شعر على تفاعيله فمر به رجل ولما لم يفهم غايته من هذا التقطيع توهم انه يتلو سحراً على الماء حتى لا يرتفع فقذفه في النهر فغرق

ما فيكم كلكم واحدٌ يعطي ولا واحدةٌ تمنع

ولم ينقص جود العرب في الاسلام عما كان عليه اسلافهم في الجاهلية وعندي لهذه المنقبة المحمودة فيهم شواهد جمةٌ لو شئت أوردتها كلها لكني اقتصر منها على ايراد شاهدٍ واحد واضرب عن الباقي صفحاً . رُوي عن الهيثم بن عديّ انه قال تماري ثلاثة نفرٍ في الاجواد فقال أحدهم أسخى الناس في عصرنا هذا عبد الله ابن جعفر فقال الآخر أسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة فقال الآخر بل أسخى الناس اليوم عرابة الأوسيُّ فتنازعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجلٌ لقد أفرطتم في الكلام فليمض كل واحد منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر بم يعود فنحكم على العيان . فقام صاحب ابن جعفر فوافاه وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعةً له فقال الرجل يا ابن عمّ رسول الله ابن سبيل ومنقطعٌ به فاخرج رجله وقال له ضع رجلك واستوِ على الناقة وخذ ما في الحقيبة وكان فيها مطارف خزٍّ وأربعة آلاف دينار وأوصاه ان يحتفظ بسيف كان أيضاً فيها فانه سيف عليّ بن أبي طالب . ومضى صاحب قيس فوجده نائماً فقالت له جارية لقيس ما حاجتك فقال ابن سبيل ومنقطعٌ به فقالت له الجارية حاجتك أهون من إيقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما في دار قيس اليوم غيرها وامضِ الى معاطن الابل فخذ راحلةً من رواحله وما يصلحها وعبداً وامضِ لشأنك . قيل ان قيساً لما انتبه أخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها ويروى انه قال لها لو نبهتني لزدت في العطاء ولو لم تعلم ان ذلك يرضيه لما جسرت ان تفعله تخلق خدم الرجل مقتبس من خلقه . ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة ومعه عبدان يقوداته فانه كان كفيف البصر فقال له الرجل ياعرابة ابن سبيل ومنقطع به فرفع عرابة يديه عن العبدين وصفق بيمناهما على اليسرى وقال أواه أواه والله ما أصبح عند عرابة شيء ولا تركت له الحقوق مالاً ولكن خذ هذين العبدين فقال الرجل والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك فقال ان أخذتهما والاّ فهما حرّان فان شئت فخذ وان شئت فاعتق وخلاهما وعاد الى منزله متلمساً طريقه من الجدران كعادة العميان فأخذهما الرجل ومضى . ثم اجتمعوا وذكر كل واحد منهم قصته فحكموا اجماعاً لعرابة لانه أعطى على جهدٍ (١) ولقد انصفوا فيما حكموا

وللعرب مناقب أخرى حميدة فكثيراً ما مدحهم الاقدمون برعاية الذمام وصلة الرحم وقد عرفوا منذ القديم بالذكاء والالمعية وانقاد القريحة ولا سيما أهل البادية منهم . ولكن كما ان لهم خصالاً

---

(١) من المستطرف وغيره

محمودة فكذلك لهم كغيرهم من الناس خلال مذمومة وقد أقرّ مؤلفوهم أنفسهم ان من خصائصهم الحرب وشن الغارة وسفك الدماء والفظاظة والنهب وانهم أهل حقد شديد فلا يكادون ينسون ترةً وهذا ما يعزوه واحد من الاطباء الى الاغتذاء بلحوم الابل (١) وهي لاهل البادية غذاء مألوف فهم لذلك أشد حقداً من الحضر لان الجمل حقودٌ طبعاً وان صح هذا فيكون للتمييز بين اللحوم وجه مقبولٌ

ولكثرة ما يفعله العرب من نهب التجار وابناء السبيل أصبح اسمهم وهو بئس الاسم عند الافرنج وهم يعرفون ذلك ولكنهم يحتجون عنه بما ناب جدهم اسمعيل من الجنف فانه طرد من بيت أبيه وحرم قسطهُ من الميراث فورثه الله البوادي والصحارى وأباح له كل ما تقع عليه يده فيها فلذلك يرون انه يحل لهم انتزاع كل ما وصلت اليه أيديهم تعويضاً من حقهم الذاهب . الا انهم لا يقفون في ذلك عند ذرية اسحق وحدهم بل الناس كلهم فيه سواء عندهم كانهم يفترضون ان بينهم وبين كل من ينهبونه ضرباً من النسب . واذا رووا احاديث نهبهم وسلبهم اكتفوا بتغيير التعبير فلا يقول أحدهم نهبت كيت وكيت بل يقول غنمته . ولكن لا يسوغ لنا ان نستنتج

---

(١) قاله صاحب الكتاب المسمى بالشامل في فصل الضان

من ذلك انهم غير أمناء في حق اخوانهم أو من ينزلونه منهم منزلة الصديق فهم لعمري من أشد الناس حرصاً على رعاية الامانة في خيامهم حيث كل شيء سائب لكنه لايسرق شيء البتة

أما العلوم التي كان اكثر عناية العرب بها قبل الاسلام فهي ثلاثة أولها علم انسابهم وتاريخ قبائلهم . ثانيها شيء من علم الفلك بقدر ما يدلهم على الانواء . ثالثها علم تعبير الرؤيا . وذلك انهم لما كانوا كثيري التفاخر بشرف أنسابهم كثرت المنافسات بينهم فكان ذلك داعياً لحرصهم على توضيح النسب . وأما ما عرفوه بفرط العناية وطول التجربة لا على طريق تعلم الحقائق (١) وكانوا مثل أهل الهند في الحرص على رصد الثوابت خلافاً لغيرهم من الامم الاخرى التي كانت على رصد السيارة أحرص وكانوا يحكمون الاحكام بمقتضى خصائص النجوم دون طبائعها (٢) . ومن هنا نشأ الاختلاف الذي ذكره بعض العلماء بين وثنية اليونان والكلدان الذين كانوا يعبدون السيارة ووثنية الهنود الذين كانوا يعبدون الثوابت . أما النجوم التي كانت العرب تستدل بها على تغير الجو فهي التي يدعونها بالانواء أو منازل القمر وعدتها ثمانية وعشرون منزلاً تنقسم بها دائرة البروج الى ثمانية وعشرين قسماً ينزل كل ليلة بواحد منها فاذا سقط

---

(١) ابن البيري (٢) الشهرستاني

نجم منها في المغرب مع الفجر طلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وهذا يكون في كل ثلاث عشرة ليلة . ومن سقوط هذه النجوم وطلوعها توصلوا بعد طول الرصد الى معرفة ما يحدث من التغير في حالة الجو وافضى بهم ذلك آخر الامر الى ان ينسبوا قدرة الربوبية الى هذه النجوم كما تقدم فكانوا يقولون مطرنا بنوء كذا فنهاهم محمد عن هذا القول بما كان له عندهم من المعنى الا اذا أرادوا به المجاز بمعنى ان ذلك من فعل الله وتدبيره بحيث انه اذا نزل القمر بهذا المنزل أو بذلك أو اذا طلع هذا النجم أو سقط كان مطر أو ريح حرٌّ أو بردٌ

ويتحصل مما مرّ ان العرب المتقدمين لم يزيدوا في علم الفلك (وهو العلم الذي برع فيه متأخروهم) على مراقبة تأثير النجوم في الاحوال الجوية ووضع اسماء لهذه النجوم مما حداهم عيشهم في الخلاء ليلاً ونهاراً يرعون الماشية ولذا كان في غالب الاسماء التي وضعوها للنجوم اشارة الى قطعان الماشية وقد حرصوا كل الحرص على التمييز بين هذه النجوم بان افردوا لكل واحد منها اسماً خاصاً به حتى صارت العربية اكثر لغات الارض اسماء نجوم وصوَر . نعم ان متأخريهم اخذوا عن اليونان اسماء صوَر شتى الا ان غالب الاسماء هو عربي الاصل واقدم وضعاً من الاسماء اليونانية وخاصةً اسماء

النجوم النيرة في الصور وكذلك اسماء الصور الصغيرة التي تتضمنها الكبيرة مما لم يرصده اليونان ولا اسم له عندهم (١)

هذا تلخيص ما كانت عليه العرب قبل محمد اي فيما يدعونه بالجاهلية وقد اوجزت العبارة فيه واجملتها بقدر الاستطاعة. وسأشرع في البحث بالايجاز عما كان من حال الدين في المشرق وحال المملكتين العظيمتين اللتين كان ذلك القطر مقتسماً بينهما ايام ادعى محمد النبوة وما اتفق حين ذاك من الاحوال التي اعانت على نجاح الامر الذي كان آخذاً فيه

---

(١) انظر آثار البلاد للقزويني عند كلامه في الافلاك

مسابقة الجزء الاول من كتاب
مقالة في الاسلام وذيله

ايها الاخ الكريم

جاء في الحديث "اطلبوا العلم ولو في الصين".
وهذا الكتاب نقدمه لك ــ بعد ان اعاننا الرب على اخراجه ــ هو واحد من ثمار الفكر اليانعة، والجهود الخيرة، عسانا به نشاركك في انتفاعك مما انتجته العقول الفذه، والاقلام المبدعة كشفا عن الحق ونبذا ودحضا للباطل....وسعيا في سبيل امتداد ملكوت الله:

اقرأ وتأمل ثم اجب على اسئلة فصوله ودعنا ننتظر اجاباتك لنرسل لك باحد كتبنا المفيدة جائزة لك في حالة نجاحك.

اسئلة الفصل الاول من كتاب
مقالة في الاسلام

١ــ متى تملك العرب توسعا الارض التي يطلق عليها اليوم "جزيرة العرب"؟

٢ــ ما اسم اقدم المدن وما معناه وبأى اسم ورد في التوراة؟

٣ــ لاى بلد ينتسب مسيلمة الذى بارى محمداً في النبوة؟

٤ــ ماهو دين اكثر العرب في الجاهلية؟

٥ــ كيف ذكر القرآن الصابئة؟

٦ــ اعترف العرب قبل الاسلام باله واحد ولهم فيه تلبية اى دعوة فما هي؟

٧ــ من الشعائر الاسلامية في الحج ما كان اسما لصنمين في الجاهلية فما هما؟

٨ــ متى وصل اليهود الى بلاد العرب وماذا عملوا فيها؟

٩ــ متى انتشرت النصرانية في بلاد العرب واى الفرق التي نشرتها وما اسم القبائل التي تنصرت قبل الاسلام؟

١٠ــ كم اسقفا ومطرانا للنصارى في بلاد العرب؟

١١ــ اى مذهب فشا في قريش قبل محمد وفي ايامه واى مذهب يشبه من مذاهب اليهود وبم كان يؤمن اصحاب هذا المذهب؟

١٢ــ ما مقام اللغة العربية بين اللغات ومتى بدأ بها؟ وكم لغة عربية للعرب؟ ومتى استنبطت حروف العربية الحالية ومن قام بذلك؟

١٣ــ كان للعرب ثلاثة مفاخر وثلاثة تهاني فما هي؟

١٤ــ ما اهم واعظم سوق في تاريخ العرب وكم قصيدة نسبت اليه وما هو اسمها حتى الان؟

١٥ــ ما هي العلوم الثلاثة التي عني بامرها العرب؟

اذا اجبت على عشرة اسئله فقط تنجح.

ارسل اجوبتك بخط واضح وعنوان كامل الى

نور الحياة

LIGHT OF LIFE · P.O.BOX 13
A-9503 VILLACH/AUSTRIA

تذييل

تذييل الفصل الاول

لما كانت مقالة المصنف التي مرّت انما يراد بها مجرّد الخبر لا البحث والنظر لم يتصدّ فيها لتخطئة ما جاء بهِ مؤرّخو المسلمين ومفسرو القرآن من اخبار العرب البائدة والمستعربة مما هو محض اقاصيص يهودية تهافتوا عليها من غير استثبات وتناقلها خلفهم عن سلفهم وشحنوا بها تواريخهم وتفاسيرهم حتى صارت لا يخلو منها كتاب ولكنه اوردها على سبيل الحكاية في جملة ما نقله عنهم واكتفى بان نبه المطالع في الفصل الاول من المقالة الى ان ما يذكره من انساب العرب ان هو سوى زعم مؤرخيهم وان العهدة بهِ عليهم اذ ليس عن العرب البائدة اخبار يركن اليها وليس لمن يسمونهم بالعرب المستعربة ما يثبت دعواهم انهم من ذرية اسمعيل

ولولا ان القرآن ذكر تلك الاقاصيص تلميحاً وجاء المفسرون بعده لتأييد مزاعمه بحكايات تزيد تلك الاقاصيص سخفاً وتلقي على حقائق التاريخ ستاراً من الباطل لم يكن هناك ما يدعو الى الرد عليهم وبيان ما في اقاويلهم من الوهن والشطط (١) فلا تعتمن بما يلقونه اليك من اخبار اعرابهم البائدة ولا بما يدعونه للمستعربة من الاصل الاسمعيلي فذلك كله بعيد عن الصحة عريق في الوهم ينقض بعضهُ بعضاً وكثيراً ما يعارض حديث نبيهم بل القرآن نفسهُ وما كان اغناهم عن تلك الحكايات الواهية والخرافات الباطلة التي لجأوا اليها لتحقيق ما جاء في كتابهم من الاخبار المبهمة فزادوا تلك الاخبار على وهنها وهناً ودلوا على انها لم تكن الا من مختلق الحديث وقد كان في التأوّل مندوحة لهم عن ذلك وهم بحمد الله من اقدر الناس عليه واطولهم فيه باعاً

فمن المغالط الفاضحة التي سقطوا فيها ما ورد لهم من الكلام على قبيلة عاد حيث ادعوا ان عاداً هذا من ذرية إرم بن سام وانه متقدم على اسمعيل بزمن طويل وان ابنه شداداً سمع بوصف الجنة فرام ان يضاهيها واقبل ببني إرَم ذات العماد في بعض صحاري عدن وهو وقتئذٍ ابن ثمانمائة سنة واقام في بنائها ثلاثمائة سنة وهذا يلزم منه ان

---

(١) لما رأى المفسرون ما جاء به القرآن من ذكر اصحاب الكهف واوم ذات العماد وناقة صالح ومسخ القردة وجنود سليمان من الجن والطير وقصة النمل وما اشبه ذلك من الاساطير ظنوا انهم اذا جدوا جدوه لم يأتوا شيئاً فريّاً فاطلقوا العنان لاقلامهم وتاهوا في بيداء الخيال حتى موهوا التاريخ بل شوهوه وضربوا دون الحقائق حجاباً كثيفاً من الخزعبلات والترهات التي لا ترضي سوى الصبيان ولا يرتاح اليها سوى العجائز

شداداً عمر الفاً ومائتي سنة . لكن الذي نعلمهُ من التوراة ان ارم الذي زعموا انه جدُّه لم يولد الا بعد الطوفان فيكون بين الطوفان ومولد شداد (١) لا اقلّ من مائة سنة ويكون موت شداد بعد الطوفان بنحو الف وثلاثمائة سنة. ونعلم من التوراة ايضاً ان اسمعيل مات بعد الطوفان بخمسمائة وعشر سنين (٢) وعليه فيكون شداد متأخراً عن اسمعيل بزهاء ثمانمائة سنة لا متقدماً عليه كما زعموا (٣)

والذي ذكرناه من عدد السنين انما هو بحسب تقويم النسخة العبرانية من التوراة وهو التقويم الاصح الذي عليه علماء المصر . واذا اطرحنا هذه النسخة واخذنا بتقويم النسخة المعروفة بالسبعينية وهي النسخة التي اخذ عنها مؤرخو المسلمين كافة ولم يكادوا يعرفون نسخة سواها نجد ان بين الطوفان وموت اسمعيل الفاً ومائتين وخمسين سنة . وبناء على الحساب المتقدم لمولد شداد وموته نجد بمقتضى هذا التقويم ايضاً ان شداداً قد عاصر اسمعيل كل حياته ومات اسمعيل قبله بزهاء خمسين سنة

---

(١) هو على ما في كتبهم شداد بن عاد بن عوض بن ارم بن سام بن نوح

(٢) وذلك انه ولد بعد الطوفان بثلاثمائة وثلاث وسبعين سنة . وعمر مائة وسبعاً وثلاثين سنة فذلك خمسمائة وعشر سنين (٣) ولا مناص لهم من هذه النتيجة لانهم حرصوا على تدوين نسب شدادهم حرصاً يقطع عليهم طريق التأول ولولا ذلك لما اعجزهم ان يقولوا انه واحد او ابن واحد من الثمانين الذين زعموا انهم نجوا مع نوح ولم يكونوا من اهل بيته كما جاء في تواريخهم

اما مدينة ارم التي زعموا ان شداداً ضاهى بها الجنة فقالوا في وصفها انهُ جعل قصورها من الذهب والفضة واساطينها من الياقوت والزبرجد وزينها بالحدائق والجنان وشقّ فيها الجداول والانهار ولم يدّخر في تزيينها نفقة ولا عناء حتى جاءت مدينة لم يخلق مثلها في البلاد (١) فلما تم بناؤها سار اليها باهل مملكته حتى اذا كانوا منها على مسيرة يوم وليلة سلط الله عليهم ريحاً صرصراً عاتيةً عصفت سبع ليال وثمانية ايام حسوماً (٢) فهلكوا جميعاً. الا ان الجنة التي رام شداد ان يضاهيها لم يسبق وصفها بتلك الصفات في كتاب غير القرآن وهو متأخرٌ عن شداد بكثير فمن اين لباني ارم باساطين الياقوت الذي ليس منه في الارض كلها الا ما لا يكاد يكفي للحلي فضلاً عن ان تعظم قطعهُ حتى تنحت منها اعمدة تقل قصوراً من الذهب ان يعلم وصف الجنة فيضاهيها وهو في زعمهم متقدم جداً على الكتاب الذي وصفت فيه. فان قيل انه نبي عرف ما سينزل به القرآن من قبل نزوله قلنا ان كان نبياً فقد فعل ما فعله الهاماً لا تجبراً وطغياناً كما قالوا الان النبي لا يتمرّغ على دبه ولا يضاهي جنته وان لم يكن نبياً بل كان ملكاً ذا ثروة ونعمة ودنيا عريضة وبنى تلك المدينة على ما وصفوا وجاء فيها بصفة الجنة وهو لا يعلم فليس فعله

---

(١) سورة الفجر : ٦و٧ (٢) سورة الحاقة وتفسيرها

هذا مضاهاة ولا مما يسخط الله عليه حتى يقضي بهلاكه وهلاك اهل مملكته جميعاً نساء ورجالاً شيوخاً واطفالاً ابرياء ومجرمين لانه سبحانه اذا أنعم على عبد نعمة احب ان ترى نعمته عليه كما جاء في الحديث .

واغرب ما في هذه القصة التي كلها غرائب انهم يوردونها في كتب التفسير التي تكاد تكون من كتب الدين عندهم ويعضدونها باحاديث معنعنة تتصل بكعب الاحبار فيقولون ان رجلاً اسمه عبد الله ابن قلابة ضلت له ابلٌ فخرج في طلبها فوقع على تلك المدينة فحمل منها ما قدر على حمله مما ثمّ ولعلّ هذا الرجل لم يدّعِ هذه الدعوى الاّ تفادياً من ان يتهم بانه سرق او سلب ما كان بيده من الجواهر التي لا توجد عادة بأيدي رعاة الابل فبلغ خبره الخليفة معاوية فاستحضره فقص عليه القصة فلم يصدقها ولا بدع ولذلك استحضر كعب الاحبار يسأله عنها فقال له كعب هي ارم ذات العماد وسيدخلها في زمانك رجل من المسلمين اسمه عبد الله بن قلابة احمر اشقر قصير على حاجبهِ خال وعلى عنقهِ خال يخرج سيفي طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال هـذا والله ذلك الرجل واسمه وصفته في التوراة ولا يدخل المدينة أحد بعده الى يوم القيامة (١) وهذا الكلام

---

(١) الزمخشري وغيره من المفسرين والمؤرخين

يترتب عليه اربعة امور جديرة بان تتأمل فيها. اوّلها ان كعب الاحبار لم يكن له سابق معرفة بابن قلابة. ثانيها انه لم تقع عينه عليه من اول وهلة ولم يبصره الا بعد ما التفت وكلا الامرين مستبعد. ثالثها ان هذا الخليفة لما اراد ان يتحقق ما قيل له ولم يجد في قومه من يستخبره لجأ الى يهودي متسلم يسأله عما كان منه في شك كما أمره كتابه وان هذا الافاك كذبه كذباً لا يقبله سوى اجلاف العرب وعزى الى التوراة ما ليس فيها عالماً انه ليس فيها فصدقه معاوية وفي ذلك دليل من ادلة جمة على تصديقهم بالكذب لا سيما اذا اتاهم من المدارس. رابعها وهو نكتة القصة كلها هذا الاحتياط الاخير وهو قوله انه لا يدخل المدينة احد بعد ابن قلابة الى يوم القيامة ألا ترى انه لولا هذا الاحتياط لطولب ابن قلابة ان تقود الى تلك المدينة نفراً من جلاوزة الخليفة ليحملوا الى بيت المال ما كان متراكماً فيها من الذهب والفضة والياقوت والزبرجد ولافضى ذلك الى افتضاح المدعي والشاهد كليهما وان شئت قلت اللصّ واللغيف

ولعل مصنف القرآن لم يحمله على ذكر ارم ذات العماد سوى ما كان متشبثاً بمخيلته من الخواطر المتذكرة عن الجنة التي وعد بها اعرابه وما كان قد سمع به او رآه من بقايا تدمر وبعلبك والحجر اي بترا مدينة ثمود الآتي ذكرها فاختلط في ذكره الياقوت والزبرجد والدر والمرجان والفاكهة والرمان بالصروح الشامخة والحميا كل الباذخة الاروقة التي تناطح السحاب وغير ذلك مما يروع الامم التي ألفت النظر الى هذه الاشياء فضلاً عن اعراب الحجاز الذين لم يألفوا النظر الى شيء سوى خيام الشعر او بيوت الاجر السخيفة (١) حتى تصور له من هذا الاختلاط مدينة عظيمة هي ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

اما ثمود فقد قالوا عنها وذكروا من نسبها ما يترتب عليه انها كانت معاصرة لعاد او متأخرة عنها بقليل وذلك انهم الحقوا كلتا القبيلتين بجدٍ واحدٍ هو ارم بن سام وزعموا انها انقرضت بصيحة من السماء لعقرها ناقة صالح وذلك من قبل الميلاد باكثر من الفي سنة لكنهم عينوا موضع بلدها وصرحوا بانه الحجر اي بترا فكان ذلك حجة عليهم تبطل ما ادعوه من قدمها. وذلك ان الحجر موضع معروف وآثاره باقية اليوم وقد ذكره كل اصحاب المعجمات وتقاويم البلدان وجزموا انه بلد ثمود وانه خرب على اثر هلاكها ولم تعمر بعدها. ونحن نعلم من التاريخ الصحيح انه كان عامراً بأهله الى صدر القرن الثاني للميلاد بدليل ان الروم غزوا تلك الناحية من بلاد

---

(١) لم تعرف عرب الحجاز بناء في بلادها اعظم من كعبة مكة ولا يزيد سمكها مع ذلك على ثماني وعشرون ذراعا بذراع اليد في مثل ذلك طولا وعرضا

العرب سنة ١٠٥ للميلاد وتغلبوا على اهلها وهم ثمود وفتحوا مدينتهم العظمى وهي الحجر اي بترا وشادوا فيها المباني العظيمة ونقشوا في حجارتها ذكر هذا الفتح على ما جرت به عادتهم وهذه النقوش باقية الى يومنا هذا ويتهيأ لكل احد ان يراها. فاذا تقرر ان ثمود كانت في صدر المائة الثانية للميلاد قبيلة وافرة في مدينة عامرة بطلت دعوى المؤرخين بانقراضها قبل اسمعيل وبما يترتب على ذلك من توغلها في القدم

(الحجر مدينة بطلميوس بترا وهي واقعة في القسم الشمالي من بلاد العرب بين الحجاز والشام وهو القسم الذي دعاه بتريا نسبة الى بترا المذكورة لانها مدينته العظمى وانما سمي المدينة بهذا الاسم لانه سمع اهلها يقولون لها بلغتهم سلع او سالع وتفسيره صخرة (انظر ما جاء في سفر الملوك الثاني ١٤:٧ ونبوة اشعياء ١٦:١) فنقل معنى هذا اللفظ الى لغته اليونانية فقال بترا اي صخرة وسمي الناحية كلها بتريا نسبة الى حاضرتها

وكان لهذه المدينة من قبل الميلاد ومن بعده ايضاً شهرة وكانت ذات خطر وشان لانها لما كانت واقعة بين فلاتين معطشتين على طريق قوافل التجارة بين المغرب والمشرق صارت منزلا للراحة وامتيار الزاد للتجار الذين يضربون في الارض اما في ايامنا هذه فهي خاوية على عروشها لا يكاد يرى فيها ديار وقد زعم بعض العلماء المحدثين ان سبب خرابها تحول التجارة بين المشرق والمغرب عن طريق البر الى طريق البحر وكان ذلك في الفترة التي بين عيسى ومحمد ولعل هذا ما حدا محمداً الى ان يقول ما قاله في سورة سبأ (آية ١٤ الى ١٩) بالابهام الذي اعتاده

وقد تقدم انها واقعة من بلاد العرب بين الحجاز والشام وبالتدقيق بين العقبة وبحر لوط في فرجة طولها ميل وعرضها نصف ميل ويحيط بها جبال وعرة اعلاها جبل هور وهو الذي قبض فيه هرون (سفر العدد ٣٣:٣٨) ولذلك كان اليهود يدعون اهلها الاولين هوريين ويعنون بذلك انهم سكان كهوف لانهم رأوا بيوتهم منقورة في الصخر وهذا ما اشار اليه القرآن بقوله وتنحتون من الجبال بيوتاً. ثم فتح هذه المدينة بنو آدوم لكنهم لم يتبوأوها دار ملك ثم صارت بعدهم وذلك قبل الميلاد باربعة قرون الى جيل من اهل تلك الناحية يعرفون بالنبط وهم الذين اختلطت بهم ذرية اسمعيل قديماً في قول من يقول بدخول اسماعيل الى بلاد العرب والقرائن كلها تدل على ان هؤلاء النبط هم ثمود المزعوم انقراضهم قبل ذلك بزمن طويل فلما استقروا بها تركوا البيوت المنقورة في الصخر وجعلوها مقابر وبنوا مساكنهم وسط الفرجة المتقدم ذكرها فهي المدينة التي عظمت بعد ذلك واشتهرت ولم يزل ثم من خربها وآثارها ما يستدل به على عظمتها الاولى. وكل سائح يشاهد رسومها واطلالها وينظر الى موقعها بين الجبال ويرى بيوتها او مقابرها المنقورة في الصخر لا يتعجب من تسميتها صخرة بل لو لم تكن قد سميت بذلك لكان هذا الاسم لها اول ما يبادر الى ذهنه. قال احد السياح المتأخرين وقد عرّج عليها انه لا يتهيأ الدخول اليها الاّ من شعب لا يزيد عرضهُ اولاً على اثنتي عشرة قدماً بحيث لا يتأتى لفارسين ان يعبراه صفاً ثم يأخذ في الانفراج شيئاً فشيئاً حتى اذا افضى الى المدينة كان عرضه نصف ميل وهو الشعب الذي يدعوه المفسرون صدع الصخرة ويزعمون ان ناقة صالح نبيّ ثمود خرجت منهُ. نعم ان ابا موسى الاشعري يقول ان عرضهُ ستون ذراعاً فلعله بالغ في عرضه توجيهاً لما قيل عن الناقة من انها كانت من الضخامة بحيث لا تستطيع ان تخرج من صدع يكون عرضهُ اقلّ من ستين ذراعاً لانهم لولوعهم بالغريب الخارق لم تكن ناقة من النياق المألوفة لترضيهم وتجعل لهم المزية على سواهم)

(عود)—اما طسم وجديس فقد ادعوا لهما من القدم ما ادعوه لعاد وثمود وجعلوهما متقدمتين على اسماعيل بكثير الا انهم تناقضوا بذلك انفسهم وحديث نبيهم على ما جرت به عادتهم وذلك انهم بعد ان استندوا الى نبيهم حديثاً يقول فيه ان اسماعيل اول من نطق بالعربية (١) وجزموا بانه لم يسمع للعرب بسبعة ابيات على قافية واحدة قبل امرئ القيس معاصر محمد ووصفوه بانه اول من احكم القوافي (٢) اثبتوا لعفيرة الجديسية التي بسببها اقتتلت القبيلتان حتى تفانتا قصيدة بالعربية من عشرة ابيات على قافية واحدة فيترتب على ذلك ان قائلة هذه الابيات متأخرة عن اسماعيل بل عن امرىء القيس نفسه فاين هذا من توغل تينك القبيلتين في القدم وانقراضهما قبل الاسلام بالوف من السنين

هذا ما ذهبوا اليه من امر العرب البائدة واما ما جاءوا به من امر اسماعيل فهو كذلك مردود بجملته وتفصيله من اوجه متعددة. وذلك انهم قالوا انه سكن مكة والتوراة التي لم نعلم بوجود هذا الرجل الاّ منها تقول بصريح العبارة انه لما طرد من بيت ابيه سكن في برية فاران (٣) وهي ببرية سيناء بين مصر وبلاد ثمود وتبعد عن مكة بعداً شاسعاً. وتقول في موضع آخر انه نزل امام اخوته (٤) وهؤلاء كانوا بارض كنعان من الشام ولم يكن امامهم مما يلي جزيرة العرب سوى بلاد ثمود المتقدم ذكرها وبينها وبين مكة مراحل. وتقول في موضع

---

(١) حديث اخرجه الحاكم عن جابر وعليه اعتمد صاحب المزهر وآخرون من اصحاب اللغة (٢) الجامع الصغير وابو عروة في الاوائل وابن عساكر وابن الاثير وغيرهم
(٣) تكوين ٢١:٢١ (٤) تكوين ٢٥:١٨

ثالث انه لما مات ابوه اتى فدفنه في مغارة المكفيلة (١) بقرية اربع من حبرون التي بارض كنعان (٢) وبين هذه القرية ومكة مسافة لا يقدر الراكب المجدّ ان يقطعها في اقل من عشرة ايام. فلو كان اسماعيل في مكة عندما اتاه نعي ابيه لما استطاع ان يمضي فيدفنه الا بعد عشرين يوماً من موته وهذا مستبعد جداً فلا بد من التسليم بما قالته التوراة من انه كان نازلاً بالقرب من منازل ابيه واخوته لا بمكة

وقالوا انه تزوج بابنة مضاض بن عبد المسيح امير العرب الجرميين اصحاب مكة وقتئذ وهذا مردود بقول التوراة ان امهُ اتخذت له زوجة مصرية (٣) وانما اتخذتها له مصرية لانهما كانا بالقرب من مصر ولعلها اخذت له امة مثلها اذ لا يصلح للعبيد غير الاماء لان بنات الامراء لا يتزوجن بغير اكفائهن وكيف لا تأبى نخوة العرب ان يصاهر اميرهم عبداً هجيناً طريداً لا مال له سوى سبع اعنز تصدقوا بهن عليه (٤) وهم الذين انفوا من مصاهرة ابن خليفة لانه كان هجيناً (٥) ومن مصاهرة كسرى ابرويز لانه لم يكن عربياً (٦) ومن المحتمل ان يكون اسماعيل قد تزوج ايضاً بامرأة من سوقة العرب على امرأته المصرية الا انها لم تكن ام بنيه ولم يجئ ذكرها في

---

(١) تكوين ٢٥: ٨ الى ١٩ (٢) تكوين ٢٣: ٢ (٣) تكوين ٢١: ٢١
(٤) كتاب المعارف لابن قتيبة (٥) المبرد في الكامل (٦) وهذا ما احفظه على النعمان ملك عرب الحيرة ثم بعثه على قتله في خبر يطول كما جاء في النقائض ومروج الذهب وتاريخ الزنجاني

التوراة ولا في تاريخ يوسيفوس . لكنهُ من المستحيل ان يكون قد اصهر في جرهم لان هؤلاء متأخرون عن سيل العرم وهو متقدم عليه بزهاء الفي سنة كما قاله اشد مؤرخيهم تدقيقاً في قضية السنين(١) وقد تنطسوا وتحذلقوا في ضبط اسماء الامراء الذين صاهروا ذلك الهجين حتى ذكروا ان جد زوجته منهم كان يدعى عبد المسيح وهذا الاسم لا نعلم ان احداً دعي به قبل ميلاد عيسى ويترتب على ما قالوه من ذلك ان اسماعيل المتقدم على الميلاد بالفي سنة قد تزوج بامرأة متأخرة عن الميلاد ولو ببضع سنين . أفتراهم يهزلون . وكذلك لم يتنبهوا انهم بادعائهم لحمة النسب بين اسماعيل والعرب ينافضون كتابهم اذ يقول خطاباً لمحمد لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك (٢) فلو كان اسماعيل صهراً للعرب وهو عندهم نبي وبالضرورة نذير لما ساغ للقرآن ان يقول انه ما اتى العرب نذير قبل محمد

فان قالوا اننا انما نحتج عليهم بالتوراة وهم لا يقبلون حجتها لان الربانيين والقسيسين قد حرفوها لاغراضهم قلنا ان دعوى التحريف هذه مردودة ايضاً من اوجه . فاولا ان كتابهم نفسه يشهد تضميناً بسلامتها من التحريف اذ يقول وعندهم التوراة فيها حكم الله (٣) ولو كانت محرفة لم يكن فيها حكم الله كما قال(٤) ولذا اضطر من لا يماري

---

(١) حمزة الاصفهاني وابو الفداء صاحب حماة (٢) سورة القصص : ٢٦
(٣) سورة المائدة : ٤٧ (٤) انظر كتاب «ابحاث المجتهدين»

التوراة ولا في تاريخ يوسيفوس . لكنهُ من المستحيل ان يكون قد اصهر في جرهم لان هؤلاء متأخرون عن سيل العرم وهو متقدم عليه بزهاء الفي سنة كما قاله اشد مؤرخيهم تدقيقاً في قضية السنين(١) وقد تنطسوا وتحذلقوا في ضبط اسماء الامراء الذين صاهروا ذلك الهجين حتى ذكروا ان جد زوجته منهم كان يدعى عبد المسيح وهذا الاسم لا نعلم ان احداً دعي به قبل ميلاد عيسى ويترتب على ما قالوه من ذلك ان اسماعيل المتقدم على الميلاد بالفي سنة قد تزوج بامرأة متأخرة عن الميلاد ولو ببضع سنين . أفتراهم يهزلون . وكذلك لم يتنبهوا انهم بادعائهم لحمة النسب بين اسماعيل والعرب ينافضون كتابهم اذ يقول خطاباً لمحمد لتنذر قوماً ما اتاهم من نذير من قبلك (٢) فلو كان اسماعيل صهراً للعرب وهو عندهم نبي وبالضرورة نذير لما ساغ للقرآن ان يقول انه ما اتى العرب نذير قبل محمد

فان قالوا اننا انما نحتج عليهم بالتوراة وهم لا يقبلون حجتها لان الربانيين والقسيسين قد حرفوها لاغراضهم قلنا ان دعوى التحريف هذه مردودة ايضاً من اوجه . فاولا ان كتابهم نفسه يشهد تضميناً بسلامتها من التحريف اذ يقول وعندهم التوراة فيها حكم الله (٣) ولو كانت محرفة لم يكن فيها حكم الله كما قال(٤) ولذا اضطر من لا يماري

---

(١) حمزة الاصفهاني وابو الفداء صاحب حماة (٢) سورة القصص : ٢٦
(٣) سورة المائدة : ٤٧ (٤) انظر كتاب «ابحاث المجتهدين»

منهم ان ينبذ دعوى التحريف ظهرياً ويقول ان ما وقع في القرآن من نسبته اليها فانما المعني به التأويل (١) . فلا تحريف اذاً في متنها اما تحريفها بالتأويل فمسألة أخرى ليس هذا موضع النظر فيها والمسلمون ولا سيما مفسرو القرآن منهم اولى الناس بغض الطرف عنها تفادياً من ان يفتحوا على انفسهم هذا الباب

ثانياً ان هذه الدعوى لا يدعيها عاقل لان الربانيين لم يكن لهم مصلحة ولا غرض في مواطأة القسيسين على تحريف التوراة في ما يتصل بأمر اسماعيل لانهم كانوا وقتئذٍ يتوسلون بكل لوسائل لحمل العرب على التصديق بلحمة النسب افتراهم يحذفون من كتابهم ذكر تزوج عمهم بابنة امير العرب وهو اعظم شاهد لما يدعونه من القرابة هذا خلف

ثالثاً ان التوراة كانت قد نقلت الى اكثر لغات البشر الذين لهم حظ من الحضارة وانتشرت في كثير من اقطار الارض فلا يحتمل والحالة هذه تواطؤ اليهود والنصارى على تحريف سائر نسخها على نمط واحد بحيث لا يبقى نسخه سالمة منه ويخفى الامر مع ذلك عن الناس كافة . وهب انهم تمكنوا من التحريف على تعذره ولم يعارضهم فيه احد لانه في كتاب خاص بهم ولا يعني امره احداً غيرهم فتاريخ

---

(١) ابن عباس وهو عندهم حجة في التفسير والحديث

يوسيفوس وهو عبارة عن ملخص التوراة كان قد انتشر في الروم واليونان (١) وهم اعرق الامم في الحضارة والعلم حتى امتلأت ايديهم من نسخه وذلك منذ المائة الاولى للميلاد وليس فيه مع ذلك ذكر لتزوج اسماعيل بابنة امير العرب ولا لسكناه مكة بل ان يوسيفوس يصرح فيه ان زوجة اسماعيل ام بنيه الاثني عشر كانت مصرية الا ان يقال ان الامم كافة يهودها ونصاراها رومها ويونانها قد اتفقت على تحريف التوراة وتحريف ملخصها على نمط واحد في جميع اللغات وسائر الاقطار وكل ذلك حتى لا يبقى فيهما ذكر لاستيطان اسماعيل مكة وتزوجه بامرأة من العرب وما شاكل ذلك من الترهات التي لا تهم احداً ولا يحفل بها احد غير المسلمين وهو مما يستنكف عن القول به صبيان المكاتب

وعلى فرض ان التحريف قد وقع في قصة اسماعيل منها فلا يخلو ان يكون قد وقع قبل الاسلام او بعده فان قالوا قبله قلنا لم يكن ثم ما يدعو اليهود والنصارى الى التواطؤ عليه مع ما بينهم من المشاحة لانه لم يكن بسابق علمهم ما كان محمداً مزمعاً ان يأتي به من امر اسماعيل وان قالوا بعده قلنا انه مستحيل في النسخ التي كانت بايدي غيرهم ولا سيما في ما كان منها بأيدي المسلمين انفسهم اللهم الا ان

---

(١) وذلك ان يوسيفوس كان قد كتبه لهم ليوقفهم على تاريخ امته بلغة يفهمونها اي اليونانية كما يقول في المقدمة

يكون هؤلاء ايضاً قد دخلوا في حلف المتواطئين على التحريف

ومن الغريب انهم مع قوة ما اوردناه من البراهين على نفي وقوع التحريف في التوراة لا يزالون مصرين على دعواهم التحريف فيها مكابرة وعناداً ولو قيل لهم ان قرآنهم قد حرف بالزيادة والحذف لانكروا ذلك واكبروا دعوى من يقول بتحريفه حتى يأتي بحجة لاثبات ما ادعاه مع انهم ليس لهم من الادلة على سلامة كتابهم منه مثل ما لليهود والنصارى على سلامة التوراة وها هي اليوم بايديهم كما هي بايدينا فليبينوا لنا اين ذكر فيها ان اسماعيل سكن مكة وتزوج بابنة اميرها . ثم انهم مع شدة حرصهم على الحاق نسب نبيهم بهذا الرجل قد عجزوا عنه وخلطوا فيه تخليطاً مضحكاً فذكروا في مواضع من مصنفاتهم ان بين نبيهم واسماعيل الذي هو جده الاعلى ثلاثين اباً اسم احدهم قحطان وذكروا في غيرها ان جرهم الذين اصهر فيهم اسماعيل هم ذرية قحطان المذكور. وهذا يترتب عليه نتيجتان احداهما ان بين كل واحد من أولئك الآباء الثلاثين والذي يليه ما يزيد على ثمانين سنة اذ كانت المدة التي بين محمد واسماعيل تنيف على الفين وخمسمائة سنة وانت تعلم ان هـذا غير مألوف من اعمار البشر بعد الطوفان . والاخرى ان اسماعيل قد تزوج بامرأة من بنات ولده وذلك من قبل ان تولد بل من قبل ان يولد ابوها وجدها بمئين من السنين . وما اوقعهم في هذا التخليط الا ولوعهم بلهو الحديث واعتمادهم على مجرد النقل غثاً كان او سميناً فنقل الخلف ما هذى به السلف من عدد الآباء واسمائهم ولم يفطنوا لما فيه من الوهم . بل ان محمداً نفسه وهو في زعمهم نبي مؤيد بالالهام لم يسلم من هذا الغلط وذلك انه تصدى ذات يوم لالحاق نسبه بالاصل الاسماعيلي فاخطأ فيه خطاء ردته عليه العرب فاضطر ان يعتذر ويقول ان النسابين كذبوا عليه ونهى قومه ان يتجاوزوا في نسبه معد بن عدنان (١) . لكنه لم يعدل مع ذلك عن الانتماء الى ذلك الاصل وكان يقول متبجحاً انا ابن الذبيحين يريد باحدهما اباه عبد الله المفديّ بمائة من الابل في قصة يطول شرحها (٢) وبالاخر اسماعيل توهماً منه انه هو الذبيح المفدي بالكبش لا اخوه اسحاق (٣) . وكان يجهل ايضاً اسم ابي ابراهيم فدعاه آزر وهو تارح فهل يليق بالنبي الملهم الموحى اليه ان يجهل هذا من امر البيت الذي ينتمي اليه والرجل الذي يدعو الى ملته

ولم يكف المؤرخين تزويج اسماعيل بابنة مضاض امير جرهم حتى زادوا عليه ان جرهم نزلوا عن الملك لابنه قيدار ودخلوا في طاعته لكن يتحصل من كلامهم انهم لم ينزلوا له عن الملك الا بعد ان

---

(١) لآثار الباقية وصبح الاعشى وعيون المعارف (٢) تاريخ ابن الشحنة
(٣) تكوين ص : ٢٢

بلغ من العمر ثلاثمائة سنة او فوقها (١) فزادت القصة بذلك سخفاً وغرابة .

ومن الغريب انهم على ما بهم من السخاء في بذل المئين من السنين للغرباء قد ضنوا على جدهم اسماعيل فلم يسمحوا له الاّ بمائة وسبع وثلاثين سنة من العمر ولو انهم زادوه عليها ليساووه باصهاره وابنه لم يكن في ذلك من بأس بل كان اشد وفاقاً لما بهم من حب الكثرة في كل شيء حتى في المكروه (٢). لا يقال انهم لو فعلوا لخالفوا التوراة فانهم لدعواهم التحريف فيها لم يعودوا يبالون بالوقوف عند نصوصها فاطلقوا لانفسهم عنان التصرف في النقل عنها بما يوافق اهواءهم فبدّلوا فيها واخترعوا ما شاءوا تارة عن تعمد وتارة عن جهل على ما مرت بك مثله وسيمر بك من ذلك ما يقضي بالعجب العجاب . وحسبنا هنا ان نذكر ما وقع لهم من تحريف النقل عنها فيما يتصل بقصة اسماعيل الذي نحن بصدد الكلام عنه. فقد قالوا ان اباه ابرهيم نكح امه هاجر نكاحاً ليلزم من ذلك ان مولاتها اعتقتها

---

(١) وذلك انهم لشدة ولوعهم بما يجعل للعرب مزية على غيرهم زعموا ان مضاضاً وهو جد اسمعيل ملك مائة سنة ثم خلفه ابنه عمر فملك مائة وعشرين سنة ثم خلفه اخوه الحارث فملك مائتي سنة (مروج الذهب وغيره) فان فرضنا ان المصاهرة لم تقع الا في آخر يوم من ملك مضاض وان النزول عن الملك لم يتأخر ولا يوماً واحداً عن موت الحارث فيكون قد مر مع ذلك ثلاثمائة وعشرون سنة بين هذين الحادثين . فليتأمل

(٢) يجمعهم عدد فرق الاسلام اكثر مما في سائر الاديان على ما مر في الفصل الثامن من المقالة

وان ابنها ولد منها حرًّا والتوراة تقول انها بقيت جارية لسارة بعد ميلاد اسماعيل كما كانت قبله بدليل هربها معه من وجه مولاتها وهذا يلزم منه ان ابنها المذكور عبد هجينٌ لانه ابن أمةٍ . وقالوا انه هو الذبيح متابعة لنبيهم على وهمه والتوراة تصرح بان الذبيح اخوه اسحق . وقالوا ان زوجته ام بنيه عربية والتوراة تشهد انها مصرية. فما كان عليهم لو تسامحوا مرة اخرى في مسألة عمره أيبلعون الجمل ويغصون باليقة لا جزم ان كل هذه الاشياء عجيبة الا ان اعجب ما فيها انهم يكتبونها ويقرأونها ويتحاورون فيها ولا يضحكون

وحقيقة الامر في قصة اسميل انها دسيسة لفقتها قدماء اليهود للعرب تزلفاً اليهم وتذرعاً بهم الى دفع الروم عن بيت المقدس او الى تأسيس مملكة جديدة لهم في بلاد العرب يلجأون اليها فقالوا لهم نحن وانتم اخوة وذرية اب واحد . وهذا سنن مألوف لليهود فانهم متى رأوا المصلحة في التودد الى قوم قالوا لهم انتم اخوتنا ونحن وانتم صنوان وقد حاولوا مرة ان يخدعوا اليونان بهذه الحيلة ليتعصبوا لهم فتغابوا (١) ثم استأنفوها مع العرب لما زحف عليهم تيطس بجيش

---

(١) جاء في سفر المكابيين الاول (ص١٢) ان اليهود ارسلوا الى اهل اسبرطة رسلا يقولون لهم ان عندهم كتاباً قديماً قد كان اريوس ملك اسبرطة كتب به الى حونيا امام اليهود وفيه يقال ان كلتا الامتين من ذرية ابرهيم . وانما رام اليهود بذلك ان يخدعوا اليونان ليتعصبوا لهم وتوهموا ان في ما قالوه لهم من وحدة الاصل ضرباً من الاطراء وانه يروق لليونان ان ينتفوا من اصلهم الذي يعدونه من مفاخرهم وينتموا الى ابرهيم

الروم ليقمع عصيانهم فتذرعوا اليهم برحم القرابة وقالوا لهم نحن وانتم ذرية ابرهيم وعده الله ولن يخلف وعده ليقيمن من سلالته ملكاً على الارض حتى الانقضاء (١) وطمعوا ان يجروهم بذلك الى قتال الروم فلم يظفروا بمرادهم . ثم نكبوا فهاجر كثير منهم الى جزيرة العرب وتوطد فيها امرهم كما ذكر المصنف ولم يألوا جهداً مذ ذاك الى ظهور الاسلام — في اشراب العرب ان بينهم وبينهم قرابة من النسب حتى نجمت فيهم هذه الاكذوبة آخر الامر لانهم كانوا اجهل من ان يردوها (٢) ولان الوثنيين منهم لما رأوا اليهود والنصارى على ما بينهم من الاختلاف متفقين على تعظيم ابرهيم لم يشق عليهم ان يكونوا هم ايضاً فرعاً من هذا الجذم اذ كان سواء عليهم ان ينتموا الى هذا الاب القديم او الى غيره ولعلهم كانوا قبل ذلك يجهلون اسمهُ بتةً فاقبلوا هم ايضاً يعظمونه وتناقلت ذريتهم امر هذا النسب بينهم وبين ابنه اسمعيل الذي قالت لهم اليهود انه جدُّهم حتى رسخت هذه القصة في اذهانهم بتمادي الزمان ولما ظهر محمد رأى المصلحة في

وانهم يجهلون انه ليس بينهم وبين اليهود قرابة ولا عصبية على حين كانوا اعظم الناس ارتقاء في ذروة المعارف

(١) اوسابيوس وغيره من قدماء المؤرخين (٢) من غريب تقلهم في هذا الباب ما ذكره ابن خلدون في نسب العدنانيين قال ونقل القرطبي عن هشام بن محمد فيما بين عدنان وقيدار نحواً من اربعين اباً وقال سمعت رجلا من اهل تدمر من مسلمة اليهود ممن قرأ كتبهم يذكر نسب معد بن عدنان الى اسمعيل من كتاب ارميا النبي عليه السلام وهو من الخش الكذب واقبحه

اقرارها فاقرّها وقال للعرب انه انما يدعوهم الى ملة جدهم هذا الذي يعظمونه من غير انه يعرفوه (١) الا ان قدماء مؤرخيهم لم يتنبهوا لما تبطنه هذه الدسيسة من الخداع اليهودي فصدّقوها واثبتوها في تواريخهم ثم تداولها الخلف عن السلف حتى صارت عندهم آخراً من الحقائق التاريخية الراهنة التي لا يسع احداً انكارها . وانت قد رأيت مع ذلك ان للكلام في ردها مجالاً متسعاً بل لم يبق اليوم احد من جهابذة العصر ومحققيه الا ويجزم بأنها خرافة وبان التصديق بها حماقة فان ابى المسلمون بعدها الا ان يكون نبيهم وأمتهُ منتمين الى ذلك المحتد الكريم فهم وما اختاروه لانفسهم

ونحن لا ننكر ان العرب أمة قديمة في بلادها ولا نشك في ان كثيراً من قبائلها قد بادت وان التي لما تبد منها ستبيد يوماً ويخلفها غيرها الى ما شاء الله هذه حال الامم كلها سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا وانما ننكر صحة ما يقصونه من اخبارها وتدعي ان اصل هذه الاخبار اساطير وخرافات قديمة تلقنها اليهود من المصريين والكلدانيين ايام اسرهم في مصر ثم في بابل

---

(١) وقد افتتن في ذلك اثر الرسول بولس فانه حاول تنصير اهل اثينا بمثل هذه الذريعة وذلك انه رآهم يعبدون الهاً ويعظمونه ويشيدون له الهياكل ويدعونه مع ذلك بالاله الذي لا يعرف فقال لهم هذا الذي تعبدونه وانتم لا تعرفونه هو الاله الذي ادعوكم اليه (اعمال الرسل ص ١٧)

وما زالوا يتناقلونها خلفاً عن سلف حتى لجأوا الى بلاد العرب على اثر تكبتهم فرأوا من المصلحة ان يحولوها الى نفعهم فجعلوا اسماء الاشخاص فيها عربية وكانت اعجمية ونسبوا الوقائع نفسها الى العرب المتقدمين توددًا الى المتأخرين فليس عاد ولا ثمود ولا طسم ولا جديس سوى اسماء لا مسمى لها ان أريد بها قبائل من العرب الاولى التي يزعمونها قبل اسماعيل ولا اسماعيل نفسه بأب للعرب المستعربة ولا تملك احد من بنيه على امة من الامم وانما كان قصارى امرهم انهم دخلوا وهم عدد قليل في قبائل العرب العديدة المجاورة منازلهم فاختلطوا بها وما كانوا منها الا كحصاة في فلاة

اما اصل العرب فلا سبيل اليوم الى معرفته على طريق الجزم لكن يترجح عند محققي العصر ان العاربة منهم قومٌ اتوا في غابر الزمان من الحبشة وعبروا الى اليمن من بحر القلزم بالقرب من الموضع الذي فيهِ عدن اليوم فاستوطنوا تلك الناحية ثم صارت لهم بها مملكة ولم تزل دار ملكهم الى ان خربت بسيل العرم فصارت صنعاء دار ملكهم (١) لكن انفصل عنهم على اثر تلك النازلة قبائل منهم اهمها غسان وعرب الحيرة. اما المستعربة وهم اهل الحجاز الذين يزعم المؤرخون انهم ذرية اسماعيل فهم كذلك من افريقية لكنهم

(١) ومما يدل على اصلهم الحبشي شكل جماجمهم وما في لغتهم من الفاظ الحبشة كتتبع من اسماء ملوكهم وتفسيره الفوي وكمبر وتفسيره الاحمر

عبروا الى الحجاز من خليج العقبة وانتشروا في البلاد حتى تاخموا العراق من جهة والشام من اخرى وخالطوا السريان والفرس واليهود (١). الا ان عرب اليمن كانوا في اول الامر احكم نظاماً من عرب الحجاز فلذا تغلبوا عليهم ولم يزالوا قاهرين عليهم الى ان نبغ في هؤلاء بطل مشهورٌ اسمه كليب بن ربيعة فخرج بهم على اليمانية يروم خلع ربقتهم وجرت بين الفئتين مواقع مذكورة وكانت الكرّة آخر الامر لاصحاب كليب فظهروا على اليمانية وكسروهم وهزموهم وسوّدوا على انفسهم كليباً (٢) فلم يزل يلي امرهم حتى قتله رجلٌ منهم اسمه جساس في خبرٍ مشهور فاصبحوا من بعده فوضى وطفقت قبائلهم تحارب احداهنّ الاخرى وتحاول كل واحدةٍ منهنّ ان تكون لها السيادة على البواقي واستمرّوا على ذلك من اوائل القرن السادس للميلاد الى اواخره وهي المدة التي كانت فيها اكثر ايامهم التي ذكروها في اشعارهم وجرت بها امثالهم ابلى فيها ابطالهم بلاءً حسناً وتمرّن سائرهم في حمل السلاح وممارسة الحرب فلما علموا ذلك من انفسهم اشرأبوا الى التغلب على اليمن واستولوا

---

(١) ولذلك كانت لغتهم الى السريانية اقرب واختلط بها شيء من الفاظ الفرس واليهود

(٢) وذلك يوم خزازى في اواخر القرن الخامس للميلاد وهو من ايامهم المشهورة

على كندة منه وكادوا يتغلبون من الجهة الاخرى على غسان والحيرة لو لم يشغلهم عن ذلك شاغلٌ من امر محمد والاسلام

اما المشهور من قبائلهم فخمس وهي ربيعة وقيس عيلان وهوازن وتميم وقريش اهل مكة الا ان القرشيين كانوا اعظمهم شأناً لما اتصفوا به من الدهاء والبطش فكان من اشهر صفاتهم المكر حيث لا ينجع العنف والعنف حيث لا ينجع المكر وهم الذين احتالوا على خزاعة حتى انتزعوا منها سدانة الكعبة فلما صارت خزانتها بيدهم اثروا ثم نمت ثروتهم بالتجارة وكانوا من الدهاقين فيها فاصبح لهم بذلك ضرب من السؤدد وعلو الكلمة على باقي القبائل وزادهم مكانة ان سوق عكاظ المشهورة كانت تقام ببلدهم مكة وكانت العرب تأتيها من كل فج لا للتجارة فقط بل للمفاخرة واثارة الحرب وابرام الصلح وفصل ما يشجر بينها

اما نسبهم فيلتحق بجد متقدم اسمه معد بن عدنان وهو الذي نهى محمد قومه ان يتجاوزوه في نسبه ولهم دلى عمود هذا النسب تسعة اصول آخرها عبد المطلب جد محمد واليه انتهت سيادة قريش وكان له اثنا عشر ابناً منهم ابو طالب وعبد الله

اما محمد نبي المسلمين فهو ابن عبد الله المذكور وامه آمنة بنت وهب من بني زهرة ولد بمكة سنة ٥٧٠ للمسيح ومات في يثرب وهي المدينة سنة ٦٣٢ ودفن في بيت زوجته عائشة وقبره ثمّ الى اليوم ويترجح عند المؤرخين ان اباه توفي قبل ميلاده بايام او بعده بايام فدفعتهُ امهُ الى ظئر اسمها حليمة بنت ابي ذؤيب السعدية فاخذته ومضت به الى بادية بني سعد وكان بنو سعد هؤلاء فصاحاً كقريش فلذلك كان محمد يقول متبجحاً انا افصح العرب ببدإي من قريش ونشأت في بني سعد . ولم يزل في حجر ظئره الى ان بلغ من العمر ثلاث سنين وكان يتواتر عليه الاغماء (١) فظنت انه يصرع وكانت كغيرها من العرب تعتقد ان الصرع من فعل الجن فخافت وردتهُ الى امهُ ولو علمت ان ريبها سيصير نبياً وان اغماءه سيعزى الى تأثير هبوط الوحي عليه لما خافت . فلما كان له من العمر تسع سنين ماتت امهُ فكفله جده عبد المطلب ثم عمهُ ابو طالب . فلما ترعرع انف من ان يكون كلاً اي عيالاً على عمه فجعل يرعى الغنم لاهل مكة ليقوم بمعاشهِ نفسه (٢) ثم صحب عمه في احدى رحلاته الى الشام . ولما بلغ خمساً وعشرين سنة من العمر خدم خديجة فكان يخرج في تجارتها الى الشام وقيل بل كان يصحب غلامها ميسرة يسوق جمالها (٣)

---

(١) وهو علة تشبه الصرع واكثر ما يصاب به الصغار ولذلك تسميه العامة ام الصبيان

(٢) ولما عيره هذه المهنة بعض العرب رد عليه وقال ما من نبي الا وقد رعى الغنم

(٣) ويترجح عند قوم ان طريقه في هذه الرحلة كانت على بصرى بالشام فلقي بها الراهب بحيرا الآتي ذكره وتعرف به وقيل بل كان قد تعرف به في رحلته الاولى مع عمه فجدد عهده به في هذه الرحلة الثانية

ومهما يكن من هذا فانه لم يمضِ على دخوله في خدمتها شهران حتى رأت منهُ ما زين لها ان تتزوج به فعرضت نفسها عليهِ فتزوجها وصار يتعاطى التجارة بمكة ولم يزل كذلك حتى بلغ سن الاربعين فادعى النبوة

اسئلة ذيل الفصل الاول من كتاب مقالة في الاسلام

١ــ ايهما ادق واصدق اخبار المخبرين ام كلام الله ووحيه المبين ؟

٢ــ هل توجد ادلة كافية لتصديق خبر "ارم ذات العماد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد ؟

٣ــ اى الكتب السماوية الذى نجد فيه اوفى الاخبار واصدقها عن سيرة اسماعيل بن ابراهيم ؟

٤ــ كيف ترد حجة او تهمة تحريف التوراة؟ ومتى زعموا تحريفها ؟

٥ــ في اى سورة وفي اى عدد يشهد القرآن بصحة التوراة وسلامة حكم الله فيها ؟

٦ــ من الذى يملك حججا اكثر واقوى على سلامة كتابه اليهود والنصارى ام المسلمين ؟

٧ــ بماذا قال محمد ان النسابين كذبوا عليه؟

٨ــ ما الذى اوحى وادخل في روع العرب عن قرابة النسب مع اليهود وما كان الهدف من ذلك ؟

٩ــ لم اقر محمد نسب قرابة العرب واليهود وعاد بنسبه هو الى اسماعيل ؟

١٠ــ لم ردت الظئر حليمة بنت ابى ذؤيب السعدية محمد الى امه وهو بعد في الثالثة من عمره؟

اختر سبعة اسئلة واجب عليها تنجح .

يمكنك ان تطلب اجزاء الكتاب الباقية وهي من ١ــ٤ من عنواننا .

اكتب اجوبتك بخط واضح وعنوان كامل الى :

نور الحياة
LIGHT OF LIFE · P.O.BOX 13
A-9503 VILLACH/AUSTRIA